عبد العزيز سعدي

الفقيه لي نتسناو براكتو

الطبعة الأولى 2026

الفقيه لي نتسناو براكتو

عبد العزيز سعدي

رقم الإيداع القانوني: 2026MO0413

الرقم الدولي (ردمك): 978-9920-25-591-2

الطبعة: الأولى 2026

الحجم: 21/14.8 سم

عدد الصفحات: 176 ص

الطبع والإخراج الفني: مطبعة وراقة بلال

الهاتف / الفاكس: 0535618603

العنوان: رقم 204، حي الأمل، النرجس، فاس - المغرب

إهداء

إلى

كل إنسان يتطلع إلى خير الناس

إلى كل مسلم يؤمن بأدب الاختلاف

إلى كل متنور يسعى إلى تنوير العقول

أهدي هذا الكتاب

مقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وبعد.

عزيزي القارئ، إذا كنتَ معتادا على تَلَقِّي كلام الفقهاء حول ما يصدر عن عامة الناس فقد حان الوقت لتجربة الاتجاه المعاكس، أي الاطلاع على ملاحظات وآراء أحد عوام الناس في ما يقوله ويفعله الكثير من الفقهاء. هذا ما يقدمه هذا الكتاب الذي بين يديك عبرْ نماذج معبرة يتفحصها من زوايا مختلفة ووقائع منتقاة يحكيها بأساليب متنوعة.

والكتاب ليس كتابا في الفقه، ولكنه كتاب عن الفقهاء أو بالأحرى حاملي الفقه؛ وهو على وجه الدقة كشكول من شذرات فقهية معبرة، اقتبستها من مواقف عايشتُها أو قرأتُ تفاصيلها أثناء متابعتي لبعض المنشورات؛ فدوَّنتُها وصنفتها وسجلت ملاحظاتي وتعليقاتي عليها في ملف وورد يجسد استراتيجية تبادل الأدوار، عنونْتُه ب "تهافت الفقهاء"، ثم وضعته في مجلد يضم ملفات نصية لتدخلات دعاة تستفز العقل، ومواعظ مصوَّرة مثيرة للسخرية، أبطالها مشايخ يصْبُون إلى الظهور وإن ازْدَراهم الجمهور، تصلُح

لإنتاج اسْكِتشات بعنوان "كيف أصبحنا أضحوكة العالم؟". وهكذا مزجتُ بين الدروس المكتوبة والخطب المرئية والمسموعة. وعند إظهار عوار نمط التفكير عند الفقهاء خاصة السلفيين المغاربة أتجنب ذكر أسمائهم لأن ما يهم ليس الجَرْح -فما لهذا أصبو- وإنما تسليط الضوء على بعض الأقوال والسلوكات التي تستحق الرصد والرد دون استبعاد الاستفادة من علمهم.

في هذا الكتاب، حاولت حصر الوقائع الأكثر شيوعا وفحصها بنظرة عقلانية وتمعُّنَها بمنهج نقدي لاستجلاء أساليب بعض الفقهاء في التأثير على العوام. وقد صادف تأليفُ الكتاب عِدةَ أحداث مثل جائحة كورونا وتنظيم كأس العالم في كرة القدم سواء للرجال أو النساء وزلزال الحوز وتعديل مدونة الأسرة بالمغرب. وهي أحداث فرضتْ نفسها على الساحة الدعوية؛ فكان لزاما أن تشملها الدراسة المسحية مع اتباع المنهج الوصفي في سَبْرْ خُطَب رجال الدين.

وقد صنفتُ المواقف والآراء الغريبة وفق مواضيع شكلتْ فصول الكتاب. لكن يحدث أحيانا أن يضم الفصلُ الواحدُ مسائل من مواضيع مختلفة، أو توزَّع مواقف من موضوع واحد بين فصلين

أو أكثر؛ وما هذا التداخل إلا من غزارة المعطيات وتشعبها في بعض الأحداث. وقد نشرت جلها على شكل مقالات بعدة مواقع تعنى بالفكر والثقافة.

وقد آثرت أن أختار لكتابي هذا عنوانَ "الفقيه اللي نتسناو براكتو"، ذلك لأن الفقيه الذي يُضرَب به المثل المغربي "الفقيه اللي نتسناو براكتو دخل للجامع ببلغتو" خيب آمال الناس ولم يكُن عند حسن ظنهم، فاستُثنِي من زمرة الفقهاء الذين يُفترض أنهم في مستوى تطلعات الناس عِلما وعملا. وإذا لقبتُ الشيخ بالفقيه أو العالم أو الداعية أو الواعظ أو حتى المفتي فليس لتَرَادُفها لغة أو تَساويها وظيفة، وإنما لانتحال هذه الصفات مجتمعة من طرف من احتكروا فهْمَ الدين واعتبروا أنفسهم ناطقين باسم رب العالمين، فاستحقوا لقب رجال الدين أيضا.

وعلى الرغم من تنوع القضايا التي يرصدها الكتاب، فإنها تتمحور كلها حول طُرق التفكير الغريبة عند بعض الفقهاء. وتندرج معالجتها في محاولة انتشال الفقه من تخلفه الذي استفحل في المجتمعات الإسلامية، علّها تكون إضاءة تبين ما انطوت عليه تلك الأساليب من مغالطات شوهت معالم الدين وتمخض عنها نفور

من الخطاب الديني. وأنا إذ أقدم هذه المواضيع، أقدمها من منطلق الحرص على تنوير الشباب المسلم وإيقاظ ذهنه إزاء العقبات الكأداء التي تعترض طريق تقدمه.

وأرجو من الله أن أكون قد وُفقت في ذلك؛ إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الأول:
شغبٌ فِقهي

من كان يظن أن بلدا مِثل المغرب، طالما عاش فيه الناس متآخين رغم اختلاف ألسِنتهم واعتقاداتهم، سيعرف اليومَ بروزَ كهنوت ديني ينشر الكراهية بينهم ويهدد أمنهم الروحي؟! يتعلق الأمر بتيار سَلفي دخيل يهدف إلى تَصدُّر المشهد الديني والتربع على عرش التحريم فيما يشْبه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تتدخل في خصوصيات الناس، من الدعوة إلى حرمان المرأة من العمل والرياضة وحتى الجلوس في المقهى إلى التحذير من مشاهدة الأفلام والمسلسلات المغربية، مرورا بتحديد الفئة العِلمية المخوَّل لها الحديث في الدين، وكأن الوهابية وجدت ملاذا آمنا ومرْتعا خِصبا للتعصب في أرض انجذب أهلُها منذ القدم إلى التدين النظيف المتَّسم بالتعقل وقبول الآخر وخدمة الوحدة الوطنية.

إن شيوخ هذا الكهنوت مجبولون على الخلاف والتحريم ولو حقنْتَهم التساهل حقنًا؛ فهُم يستهِلُّون أغلب فتاويهم بالعبارة "لقد

اختلف العلماء في هذه المسألة"، ثم يتنقَّلون بين المذاهب الفقهية ليختموا بخلاصة التحريم، رغم أن في مذهبهم المستورَد نادرا ما تتناقض الآراء وتصطرع الفتاوى. يصحبونك معهم في جولة حول المذاهب ثم يُدخلونك جُحرَ الوهابية، حيث تُعالَج العديد من المسائل الدنيوية وتُقحَم قسرًا في الدين ليتمكنوا من توزيع ما بِيدهم من حسنات وسيئات ترغيبا وترهيبا، ودون أن ينْسوا زخرفة أقوالهم بآيات قرآنية لتصِير صعبة التهجم وليسْهل عليهم اتهام منتقديهم بنصْب العداء للدين.

ومن خلال استقراء آرائهم الفقهية نلاحظ أنهم يميلون إلى تأويل النصوص الدينية لتكُون قاهرةً للبشر، مُلغِيةً للحريات، مهيمنة على كل شؤون الحياة. كبائر الذنوب عندهم أكبر مِن أن يستوعبها كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبي، وما يَنهَوْن عنه أكثر مِن أن يَسَعه معجم المناهي اللفظية لابن العثيمين. فهُم يُكثرون من الضوابط والمُعيقات التي تشل حركة المسلم، بل يسبقون إلى اختلاق الإشكال من المباح أصلا لينفردوا عن كل الأنام، مُكَبِّلين كل حركة لتوطين التقدم والحداثة في المجتمع الإسلامي.

واللافت أن خرجاتهم الاستعراضية ليست أمرا بالمعروف ونهيا

عن المنكر كما يدَّعون، ولا تعَصُّبا للحق ولِصحيح المعتقَد كما يزعمون، فأصحاب الرأي الآخر من الفقهاء هم أيضا لا يرَون الحق إلا في مذهبهم؛ وبينْ الفريقين يَتيه عامةُ الناس، وحسْبُ المؤمنين قول الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ)[1].

ولا يتَوانىَ هؤلاء المشايخ الذين استباحوا الساحة الدعوية في إشاعة فتنة التطرف وممارسة العنف اللفظي بكل اللهجات المغربية. فألسنتهم السليطة التي طُبعت على التجريح لا يسلم منها عموم المسلمين الذين يُشَكلون معهم الجسد الواحد والبنيان المرصوص، بل يهاجمون مَن خالفهم مِن العلماء المعتمَدين، يصِفونهم بأنهم دعاة على أبواب جهنم وأصحاب بدعة باعوا دينهم وآخرتهم بدنيا غيرهم؛ يُؤَلِّبون ضدهم متابعيهم من الجهلة والأميين المغرر بهم، يؤججون عواطفهم لدفعهم إلى النيل منهم، بل ويستهدفون مُحِبي مخالفيهم من الفقهاء برسائل تحريضية وتسميات تبخيسية وِفق ما يسمونه عقيدة الولاء والبراء التي يوظفونها في خصوماتهم المذهبية وحروبهم الكلامية.

1 سورة المائدة، من الآية 105

والذي يتتبع كلام الشيوخ الاستعراضيين عبر وسائل الاتصال العصرية يدرك أنهم يتُوقون إلى المواضيع الخلافية ويأخذون بأسباب الاختلاف عِوض الائتلاف، بما يشير إلى عمق انحطاط فكرهم ويثْبت أنهم لا يعيشون عصرهم؛ فهُم دومًا يخوضون في رؤية الله وصفاته وخلق القرآن وشروط التوحيد وعذاب القبر وتفاصيل الإسراء والمعراج وفي مَن يدخل الجنة وما يوجد فيها؛ ويعلنون، بعد افتعال فوضى خلاقة، تفرُّدَهم بامتلاك الحق الذي لا عدول عنه واحتلالَهم منزلة أقرب إلى الله تعالى تزيدهم حرصا على الغلبة لتكون كلمتهم هي الأعلى التي تحسم الجدال. وهكذا يُسْهبون في تمَايُزهم الطائفي إلى أن يصِلوا إلى مرحلة "هذا عندنا غير جائز". في هذا السياق، لا يملك المرءُ إلا أن ينشد مع الشاعر:

يقولون هذا عِندنا غيرُ جائز***ومَنْ أنتم حتى يكون لَكم عِنْد

وليتَ شيوخ فقه التشويش، إذْ ضيَّقوا على الناس، اكتفوا بهذا الطراز من الكوابح وقصَروه على المسائل العَقَدية الغيْبِية؛ لكن لهم نظائر أخرى من القوالب المعيارية المسماة زورا "حُكم الشرع"، يُخرجونها بشكل دوري وهم يجترُّون نفس المواضيع في المناسبات والأعياد. في بداية رمضان من كل سنة يُخرجون فتوى

أحد أئمتهم "لا يُقبَل صيام تارك الصلاة"[1]، التي قد تُرَغِّب البعض في الصلاة طيلة شهر رمضان كما قد تدفع البعض الآخر إلى ترك الصيام ما دام لا يُقبل بلا صلاة؛ وفي نهاية شهر الصيام يَعرضون فتوى مُعلَّبة لا تُبيح إخراج زكاة الفطر نقدا، عكْس ما أقره المجلس العلمي الأعلى منذ سنوات واعتاده المغاربة لِخيْره على الفقير ويُسره على المُزكيّ. وفي ذكرى المولد النبوي، رغم الاحتفال الرسمي والشعبي بالمناسبة، يَخرج أولئك الدعاة على الشاشات مُشهرين فتاوى التبديع والتضليل. أما التهنئة بالسنة الميلادية الجديدة فعندهم مُوَالاةٌ للنصارى قد يفُوق إثمُها كلَّ ما اجتمع من موبقات. وبُعَيد هذه المناسبة بقليل يتجدد الجدال حول الاحتفال بالسنة الأمازيغية وما تمثله من تجذر تاريخي وتنوع ثقافي؛ إنها لَعَوْدةٌ إلى الجاهلية وجحود بأفضلية جنس العرب على غيرهم[2]، هذا أقَلُّ ما يقوله عنها شيوخ لم يجيزوا حتى التهنئة بالسنة الهجرية

1 جاء في مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز 10/ 267: الصحيح أن تارك الصلاة عمدًا يكفر بذلك كفرًا أكبر، وبذلك لا يصح صومه ولا بقية عباداته حتى يتوب إلى الله سبحانه.

2 لعلَّهم اقتنعوا بما قاله ابن تيمية عن فضل العرب على العجم في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، ج1، ص 447: "وسبب هذا الفضل -والله أعلم- ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم".

الجديدة.

وإذا كان معظم الفقهاء الأكاديميين يتنزهون عن الخوض في المسائل الخلافية، لِحِكمتهم وحِلْمهم من جهة، ولعدم امتهانهم وإتقانهم التراشق المذهبي من جهة أخرى، فإن الفقهاء المشاغبين لا يترددون في الاقتراب من عش الدبابير، إذ يصَعِّدون ويزيدون الحطب اشتعالا، مغالاة في التبديع وامتثالا لقول أسلافهم في العقيدة: "مَن وقَّر صاحِبَ بدعة فقد أعان على هدم الإسلام". والحق يقال، لقد تمادوا في شغبهم الفقهي حتى صاروا مثالا في البهرجة اللفظية والخطابات البهلوانية؛ غَرَّهم تزايدُ عددِ متتبعيهم بالترويض والتجييش، فظنوا أن شأنهم قد علا، متناسين أنهم يخاطبون جماهير تنازلت عن عقولها، تهتمُّ بالقشور دون اللُّباب، وتُكِنُّ للتفاهة كل الإعجاب.

ومِن ضُعفهم في علوم العصر وشدة حنينهم للفقه البدوي لا يفسرون الكوارث الطبيعية والأزمات الاجتماعية والاقتصادية إلا بغضب الله على العباد. وفي هكذا سياق، يستَقْوون بتفاسير أئمتهم بحجة أنهم ربانيون معروفون بصحة العقيدة وسلامة المنهج، وبآرائهم الفقهية غير قابلة للنقد والنقض بدعوى حصول الإجماع

حولها؛ فالإجماع عندهم لم ينخَرِم يوما حتى يُعرَض للنقاش والمراجعة؛ واجتهادُهم اتضح لهم صوابُه لدرجة يستحيل معها مخالفته إلى يوم الدين. وما أغربها من أفكار! يتحدثون عن علوم القرآن وعلوم الحديث وقد جمَّدوا كل محتوياتها! أمَا آن الأوان لِمن يَرْكَنون إلى فهم السلف أن يستفيدوا من منهجيات العلوم الكونية والإنسانية؟! لَيْتَهم يفهمون ما يسمعون، فلِسان حالهم يقول:

**لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا		ولكن لا حياة لِمن تنادي**

الفصل الثاني:
فقهاء آخر الزمان

لا أقصد بعبارة "آخر الزمان" الانتقاص من هيبة فقهاء تخلفوا عن ركب الحضارة، أو أتَوا بفعل شنيع اِستوْجَب التقريع. كلُّ ما في الأمر أن لِي شيوخا نبَغوا في جيُوسِياسة آخر الزمان؛ لا يخْلفون الموعد مع التاريخ إلا ليسبقونا بسنوات ضوئية؛ يَرْجعون بك إلى الجاهلية في رمشة عين، ثم يَطيرون بك إلى آخر الزمان دون أن يرفّ لهم جفن؛ يعيشون معنا بأجسادهم، لكن عقولهم في سباق ضد الساعة، تستطلع علامات الساعة؛ كيف لا وهُم يَتنقلون بخِفّة عجيبة، يتأرجحون بين اقتباسات خاطفة من أساطير الأوّلين وتسريبات حصرية من زمن الآخرين. رغم أن المسافة عندهم تُقاس بمسيرة يوم، فهُم يحلِّقون من أول الزمان إلى آخره في رَحَلات مباشرة، تقفز على الأمكنة وتطوي الأزمنة، كما الحَكَواتي في حلقات الأيام الخَوالي. والسِّر في ذلك أنهم يتفاعلون مع قضايا عصرية بإقحام أمور غيبية، في غاية المطّاطية والانسِيابية. فما هي إلا روايات مُسْندة إلى الخرافة أو آثار أقرب إلى السخافة؛ هكذا

يقُصّون ما سُطّر في الكتب الصفراء ونُسب إلى العقيدة السمحاء.

لقد غاص فقهائي في وصف علامات الساعة واختلفوا في ترتيبها؛ والأرجح عندهم أن ظهور المهدي المنتظر هو أول أشراطها. فقد مُلئت الدنيا ظُلما وانتشر الهلع بين الناس وتفشَّى الوباء والفساد، وصار من أعظم القُرُبات وأفضل الطاعات استعجالُ فرَجِه وتهييئُ الأرض لاستقباله، ليكون إماما يتولّى الزعامة إلى يوم القيامة. وأدرَك أهلُ العِلم برؤيتهم الاستباقية أن المسيح الدجال بدأ يُطل برأسه الضخم لينشر الضلال، حيث معه جنة ونار وبِأمره تسقُط الأمطار. لم أسْألهم عن حجمه، لكنهم أسَرّوا لي بأن أُذُن حماره تكفي ليسْتظِلّ بها سبعون ألفًا من الناس، يا لَـلْهول؛ وعن اختياره لهذا التوقيت بالذات قالوا إن لِآخر الزمن علامات ولِفتنة الدجال مُقدمات، ولم يبقَ مِن الدنيا قدْر ما فات.

همستُ في أُذن أحد فُقهائي مستغربا: لقد قرأتُ في مُصنَّفاتكم أن آخر حرب ستكون في الشام بالسيوف والنِّبال، فهل الصناعات الحربية إلى زوال؟! فأخبرني أن الشيوخ المتواجدين في عين المكان، بين الشام وخراسان، عَلِموا من مصادر موثوقة عن خروج

الدجال الأعْور من أصفهان[1]؛ لكن أخبارا أخرى مؤكَّدة تقول إنه مربوط في سرداب بطريقة تثير الإعجاب؛ والسرداب في جزيرة لا تَظهر على الخرائط الطُّبوغرافية ولا ترْصدها الأقمار الاصطناعية. ودون إعطاء تفاصيل عن طريقة تكسير القيود والسير بجيش من اليهود، تقول القُصاصة، اعتمادا على حديث الجَسّاسة، إن الدجال سيُمْنع من دخول المدينة[2]، فيضرِب عليها الحصار، ويفرُّ الرجال إلى الجبال، ويكون أكثر من يتبعه اليهود والنساء.

وبمجرد أن اِستهل الفقيه تفاصيل أخبار التقتيل وتقطيع الأجساد، قاطعتُه ليتَوقّفَ بثُّ المَشاهد المرعبة، واستدرجْتُه إلى العودة من آخر الزمان عبر رحلته المكوكية والاقتراب منّي مكانا وزمانا، أنا الذي أتَّهِمُه زُورا بالتحجر والجمود، فتمنيتُ له سنة ميلادية سعيدة مليئة بالآمال خالية من الآلام، لكنه ردَّها عليَّ شتْما ولعْنا؛ فالاحتفال برأس السنة عنده حرام، وإن كنا نؤمن بعيسى عليه السلام؛ وخيرُ ما نصنع في هذا التاريخ استحضار نزول المسيح؛

1 عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج الدجال من يهودية أصبهان، معه سبعون ألفاً من اليهود"، رواه أحمد في مسنده.

2 عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: "يجيء الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة، فترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج منها كل كافر ومنافق"، أخرجه الشيخان.

فما رأَيْنا من فِتن وأخطار لَمِن إرهاصات آخر الزمان، فقد اشتد الخَطْب واستفحل الأمر، وكثر الهرج والمرج، ولا شك أن الدجال قد خرج؛ فما جائحة كورونا إلا مؤامرة مِن صَنِيعته، تُسَهل اقتيادَنا بخديعته، وسينْزِل المسيحُ بن مريم للقضاء على فتنته، يَلْحقه قُرْب بيت المقْدس ويقتلُه بالحرْبة بعد إذابته[1].

مع الأسف، ما زال الغموض يكْتنف جوانب عديدة من الدولة الدجّالية، فالمحدِّث لم يحدّد مركز القيادة العسكرية، ولا موقف القِوى الأجنبية، وكثُرت التكهنات حول مصير الحكومات. لكن لمْ نَصِل بعدُ إلى نهاية السير، وينتظر شيوخي الإشارة للعودة إلى الإثارة، مع المُوالي من علامات الساعة الكبرى وفِتَنها العظمى. فعلمائي الأكارم ليسوا كغيرهم من أصحاب العمائم، افْتَتَنُوا بمواضيع الفتن فكانوا خطباء الفتنة، ووجدوا ضالّتهم في الحديث عن آخر الزمان فكانوا بِحق فقهاء آخر الزمان؛ وكفى بذلك تكريما وتشريفا.

1 عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " ينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم .. فإذا رآه عدو الله – أي الدجال - ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لاَنْذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته"، رواه مسلم.

الفصل الثالث:
للفقه شيوخٌ وشيخوخةٌ أيضا

يتقدم الشاب في السن فيصِير كهلا ثم شيخا، وهذا ما نسميه بالشيخوخة العُمُرية أو الجسدية؛ لكن مِنَ الشباب مَنْ يصبح شيخا بين عشية وضحاها، لا بسبب شيخوخةٍ مبكرة عجَّلت بأرذل العمر، وإنما بسبب استِشْياخٍ جعلَنا مِن أوْهَن الأُمَم، حيث يكفي كلَّ مُتَفَيْقِه مغمورٍ إطلاقُ لحية ولبسُ عباءة لتَصدُّرِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الشيخ هو الطاعن في السن كما أسلفنا، وبهذا المعنى وَرَد ذكرُ الكلمة في القرآن الكريم وبقيتْ على ذلك إلى أن توفي رسول الله وتمَّت رسالة الإسلام؛ إلا أنها غَدَت لقبا يُطلَق على رجال الدين الإسلامي منذ العصر الأموي. وبعد أنْ ظهر الشيوخ الجُدد واسْتَتَبَّ لهم الأمر صنعوا قالبا فكريا سَمّوه السلف الصالح وأصَّلوا له بترسانة من النصوص التي تحميه، وأحاطوه بمرويات تحصن مكانتهم باعتبارهم سَدَنَته. وغالبا ما يختفي هؤلاء الشيوخ وراء كلمة علماء لاعتقادهم أن الْتِحاقَهم بهذه الفئة يمَكِّنهم من احتكار

الفقه ويَسحب مِن غيْرِهم حقَّ الحديث في الدين.

والآن، المشايخ الذين اقتصروا على اجتهادات السلف وِفْق مقولة "كلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ وَكُلُّ شَرٍّ في ابْتِدَاعِ مِنْ خَلَفَ" ليس لديهم ما يقدمونه من جديد ولو تبيَّنَ خطأُ القديم؛ ومَنْ هذا حالُهم لَمْ يَعُد العصرُ عصرَهم، هُم مجرَّد حمَلةِ فقهٍ يستظهرون ما كانوا يستنسخون. من هذا المنطلق، مُجاراتُهم فيما يعانونه من اضطراب اجتراري تُعرقِل دينامية المجتمع، والسماح بزحف فتاوى الماضي يؤدي إلى طمس معالم التطور لأن التحجر والحداثة لا يجتمعان تحت سقف واحد. من هنا تبرز الحاجة إلى تطوير فقه متخفف من الكثير من المواضيع التي لا طائل من عرضها على مسلمي القرن الواحد والعشرين. والواقع أن الانغماس في دوامة التقوقع بطرح الآراء الفقهية المتقادمة أفضى إلى حالة الانسداد وانتهى بالفقه إلى الشيخوخة.

مِن أعراض شيخوخةِ الفقهِ هذه أنَّ المُبْتَلِين بها يستحضرون القُرونَ المفضلة مثلما يحِنُّ كبار السن إلى الزمن الجميل؛ لهؤلاء الجيل الذهبي ولأُولَئِكَ السلف الصالح. كبار السن يرتاحون باستعادة ذكرياتهم وارتجاع ملاحم الماضي؛ وعلى نفس المنوال،

شيوخ الفقه الذين داهمتهم الأحداث وتجاوزهم الزمن يتمسكون بالاحتكام إلى القديم ويشتَدُّ ارتباطهم بما يجرُّ إلى الخلف رغم أن المسلمين مطالَبون بالتجديد واستشراف المستقبل والتطلع إلى كل ما يشدُّ إلى الأمام. والحالة هذه، يميل شيوخ الفقه التقليديون إلى التشبث بكل الآثار المروية، غثِّها وسمينِها، وبذلك تنطبق عليهم أعراض الاكتناز القهري، وهو اضطراب يعتري المُسِنِّين يُعْرَف بصعوبةٍ مستمرةٍ في التخلص من سَقَط المتاع وكل الممتلكات بِغض النظر عن قيمتها، يدفعهم إلى تكديسها في مساكن لا تحتملها.

وعلى صعيد آخر، إذا كان بعض المُسِنّين يلجؤون إلى إجراء عملياتٍ لإسترجاع علامات الشباب الطبيعية التي افتقدَتْها أجسامهم، على غِرار اهتمامهم بترميم مُقْتَنَياتهم البسيطة وتُحَفهم البالِيَة، فالأمر لا يختلف كثيرا عند شيوخ الإسلام، إذْ يُصِر معظمُهم على إعادة الفقه القديم بِحُلّة معاصرة وبأدوات تنتمي إلى الحداثة فيما يشبه تزويرَ تاريخِ انتهاءِ صلاحيةِ منتوجٍ لم يعُد صالحا للاستهلاك. ولا يغُرَّنَّكم غزارة الكتب الصفراء ورواج أشرطة فقهاء الحيض والنفاس، فهذه تختصر شروحَ السابقين وتلك تشْرح

مختصَراتهم وهكذا دواليك. لا اجتهاد انتعَش ولا استنباط تَجددَ، وأقصى ما هناك نبْشٌ في المذاهب والعقائد وبحثٌ عمَّا يقوي موقف هذا التيار أو ذاك، فيما يشبه عملية تدوير المخلفات. وقد لعبت وسائلُ النشر والاتصال الحديثة المدعومة بأموال النفط دورا كبيرا في إنجاح الاختراقات المذهبية والاستقطابات الحركية التي استباحت الساحة الدعوية في مجتمعاتٍ هي أقرب إلى التسامح منها إلى التعصب. ومِن أبرز علامات الشيخوخة التي اعترَت الفقهَ الإسلامي اليوم أنَّ مجرَّد التحوُّل من الأشعرية إلى السلفية الوهابية يُعَد عند البعض انتسابا جديدا إلى الإسلام.

وكما هو معروف في صراع الأجيال، يثور الشباب على التقاليد الموروثة ويرفُضون القيود التي يفرِضها الآباء والأجداد، فما بالكم إذا طالب شيوخُ الفقه شبابَهم بالعودة إلى أعراف وتقاليد عاشتها الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا؟! اتساع الفجوة يُنذِر بمقاومة أشَدّ قد تندرج ضمن صراع الثقافات. وإذا أمعنا النظر في تصرفات السواد الأعظم من الشيوخ نجد أن لهم نظرة قاصرة إلى المستجدات، تغْلب عليها الأحكام المسبقة، فالعناد وصلابة الرأي يطبعان تصرفات المتقدمين في السن والتعصب المذهبي يطغى

على عقول معظم شيوخ الدين، أما التساهل فلا يَعرف إليها سبيلا: أقوالهم وآراؤهم بمنزلة المُحْكمات القطعيات! يُبدون تعاليًا وكبرياءً لكي ينتصروا لرأيهم الفقهي المقدس، وإلا فإيمانهم مهدَّد وكل عِباداتهم السابقة ستذهب سُدى!

وإذا كان خريف العمر يتَّسم بالضعف والهُراء وقلة العطاء فخريف الفقه يكْتَنفه الركود والركون إلى الأساطير، وما الهلوسات الفقهية المُستشْرِية بأقل تأثيرا من خَرَف الشيخوخة على الأسرة في المجتمعات الإسلامية! ولا غرابة أن يرفض كبار السن تهميشهم واعتبارهم عالة على الأسرة والمجتمع، وهكذا يفعل أيضًا أصحاب الفقه الهَرِم، يقاوِمون تغييب دورِهم وبَوارَ تجارتهم؛ فيحاولون استغلال أي ظرف لتسجيل حضورهم وإثبات سلطتهم وتذكير الناس بوجود شرعيتهم وتحصين مكانتهم ليبقوا أوصياء على المسلمين.

لكن، بخلاف الشيخوخة العُمُرية التي لا يمكن العودة عنها إذا حان أجلها، الشيخوخة الفقهية ليست قدرا محتوما ولا مرضا مزمنا يتسلل إلينا. فالإسلام صالح لكل زمان ومكان؛ وما على المسلمين إلا الالتزام بالدين دون انغلاق ومسايرة الحداثة دون استلاب. بهذا

الصدد يقول العلامة مولود السريري: "يجب على أهل الدين والشريعة أن يبنوا معرفة جديدة قوية متينة تراعي هذا الحال الذي عليه الإنسانية في هذا العصر. يجب أن يكون تجديدٌ بحسب ما يقتضيه الواقع؛ فلا يمكن للإنسان أن يُبقِي البيضة في يده وتبقى بيضةً إلى يوم الدين؛ فعليه أن يعرف بأنه إذا لم ينتقل إلى ما بعد هذا الحال، سوف يقع الانتقال إليه، سواء كان محبا أو كارها".

في انتظار صحوةٍ تَنْظُر في حال الفِقه اليابس يُبوسَة جِلد العجائز، يمكن أن نستعيض عن المشايخ المنقطعين عن الواقع باللجوء إلى شيوخ الذكاء الاصطناعي؛ ولنا في الشيخ غوغل - نفعنا الله بعلمه - خير دليل وأقرب صديق. وسيتَفتَّق التقدم التكنولوجي عن أجيال جديدة من الشيوخ على قدر كبير من العِلم، مجرَّدين من العباءات الطائفية التي ترسخ الأنماط الفكرية العقيمة وتعتبرِ كل تنوير استنساخا للنموذج الأوربي وانسلاخا عن الإسلام.

الفصل الرابع:
"اِتّقِ اللّه!" في حِواراتنا

"اِتّق اللهَ يا هذا المسلم!"، بهذه العبارة تَوجّه إليّ شيخٌ ذو لحية مُشَعَّثة وعباءة قصيرة في إحدى مقصورات القطار أثناء سفري من القنيطرة إلى وجدة في نهار يوم من أيام رمضان. غاضني هذا التدخل المفاجئ من الشيخ الداعية رغم رغبتي الدائمة في تقوى الله ونيل رضاه، إذْ كان السياق يقتضي تجاوزَ إطار اللفظ إلى عمق المغزى. وبدأ يتضح القصدُ حين أضاف "وإذا ابتُلِيتم فاستتروا"؛ فقلت له: "عن أي بليّة تتحدث يا شيخ؟ ما بِيَدي كأس ماء معدني لا مشروب روحي، وهذه علبة عجائن لا معجون!" فردّ علَي: "أنا أتحدث عن انتهاكك حرمة رمضان واستفزازك مشاعر الصائمين؛ وإذا لم تستحي فافعل ما شئت!". ما استفزّني ليس الفقهُ المتشدد المطمور في عقله المُشمَّع بالأحمر، وإنما تهجمه علَيّ بالقول "اِتّق اللهَ!" باعتباره حامي الدين الذي يقوم بواجبه الشرعي المتمثل في النهي عن المنكر؛ فهذه العبارة كلمة حق أراد بها باطلا، هي بالنسبة له وسيلة هجوم مقَنّعة، ملغومة بالكثير من المغالطات (شخْصَنة،

اِلتماس مشاعر، احتكام إلى سُلطة، إحراج زائف...)، يوَظفها تسْفيها لموقف غيره؛ وليُعِيقَ إبطالَ مفعولها يُرْسِيها بالدعوة إلى الاستحياء والتسترّ، مُمْعِنا في إخزاء خصمه وإضفاء الشرعية والقدسية على حُجته هو، فالآمِرُ بالتقوى لا يمكن إلا أن يكون من عباد الله المتّقِين؛ هكذا يلْتَحِف بالشرع لِشَيْطنة كل من يخالف نهجَه وإيهامِه أنه بالانقياد له يمْتَثل لأوامر الله ويجتنب نواهيه؛ وبمعارضته يُعتبر مستكبرا ومُتماديا في ضَلاله ومَعْنيا بالآية الكريمة (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)[1]. وكَمْ سمعتُ تلك العبارة من أفواه دُعاة ووُعّاظ بعد فشلهم في دغدغة العواطف واستمالة أشياع جُدُد باستعمال كل حِيَل الإقناع، وصارت مقدمةً لاتهام كلِّ عَصِيّ على الاستقطاب بإنكار السُّنة وجحد آيات القرآن والارتداد عن الدين. كما أن استعمال المنادَى "يا هذا المسلم" لمخاطبتي لم يكن بريئا في ذلك السياق، فالأرجح أنه قصَد "يا مَن يظن نفسَه مسلما" أو "إنْ كان هذا الأمر بالتقوى لا يعنيك، فأنت خارج دائرة الإسلام".

ذكّرَتْني هذه النازلةُ بِشيْخ يتطفل على الوعظ والإرشاد بمُحيط

1سورةالبقرة، الآية 206

مسجد حيِّنا الهامشي، اعتاد التعبير عن رفضه واعتراضه على الغير بالقول:" سِرْ، الله يهديك"، للإيحاء أنه يتفرد بامتلاك الحقيقة المطلقة ويحْتل منزلة أقرب إلى الله تعالى، تُخوِّل له الدعاء لِعبد مُذْنب بالهداية إلى طريق رآه حقاً وأراد فرضَه على كل الناس. فقد كان يَبْني مغالطاته على أدعية مأثورة جارية على ألْسِنة المسلمين، أُورِدها في بعض سياقات استعمالها:

"صارت المرأة تخرج للعمل، نسأل الله العفو والعافية".

" لقد انتشر الغِناء في كل مكان، اللهم رُدَّنا إليك ردا جميلا".

"أُغلِقَت المساجد بحجة انتشار الوباء، حسْبنا الله ونعم الوكيل".

"سَلَفنا الصالح يقول إن الشمس تدور حول الأرض، وهؤلاء العقلانيون- والعياذ بالله- يزعمون أن الأرض هي التي تدور حول الشمس"؛ ويعقِّب بالقول المأثور "إن هذا العلمَ دينٌ فانظروا عَمّنْ تأخذون دينكم" مشيرا إلى نفْسه بكل فخر واعتزاز، وخاتما بالرجاء: "طُوبىَ لِمن جعل اللهُ هدايةَ الناس على يديه".

وتَعَدى الأمرُ مجردَ المغالطة حين كان يردِّد مع بداية جائحة كورونا: "ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا"، في تلميح واضح

إلى علاقة سَبَبِيّة جاهزة في فكر شيخي وغيره من التراثيين. فرغم أن هذا دعاءٌ بين العبد وخالِقه، كان يحرص على إسماعه لكل الناس، وكأنه يتبرأ منهم واصفا إياهم بالسفهاء الذين لا غيرة لهم على الدين والوطن، ويَدّعي ضِمنيا انتماءَه إلى فرقة ناجية حجزتْ لها مكانا في الجنة، وتِلْكُم نزعةٌ تكفيرية خالصة.

ومن المراوغات التي يُتقنها المتاجرون بالدين وشاع تداولها بين الناس لنجاحها في التصدي لكل حُجة سديدة، أنْ أمرَني يوما عندما جادلتُه في مسألة دُنيَوية بحْتَة: "قُل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!". وبما أني ألعنُ الشيطانَ كلما ذكرتُه دون انتظار إشارة من أحد، لمْ أستسِغ أمره في تلك اللحظة؛ فقد أشْعرني أني بِتشبّثي برأيي كنت إلى الشيطان أقرب ومن الله أبعد، وما عليّ إلا الخضوع انصياعا لا اقتناعا، بالتخلص من رأيٍ وسْوسَه لي الشيطان واتباعِ رأي مَن رضي الله عنه.

لعلك عزيزي القارئ تعرضت لمواقف مشابهة، فتحسّسْتَ إيمانك بالله وتأكدْتَ بنفسك مِن تَعطّل مقياس الإيمان الذي ابتدعه فقهاء رفعوا مؤشر التطرف إلى مستوى غير مسبوق.

الفصل الخامس:
إنهم أكثرُ تديُّنا مِنّا!

أستحْلِفُك بالله أن ترسلها ... أمانة في عُنُقك إلى يوم الدين... أرسلها وسوف تسمع خبرا مفرحا... انشرها ولك الأجر؛ بمثل هذه العبارات يُراد ابتزازك عاطفيا ودينيا لترويج أدعية مأثورة وأحاديث "نبوية" لتصبح من رواة الحديث دون أن يجد اسمُك طريقه إلى سلسلة السَّنَد خاصة إذا كان من الأسماء المستعارة أو أسماء الإناث حيث يصعُب على الرَّاوِيات من النساء اقتحام "عِلْم الرجال".

إنها أذكار وأحاديث "شريفة" ظهرت مع ثورة المعلوميات؛ بدأت بِسُيولة ضعيفة عن طريق البريد الالكتروني والمُدَونات ثم تعددتْ رِواياتُها سنَدا ومتْنا على شبكات التواصل الاجتماعي. رُواتها ثِقات، بل في منتهى الثقة، لا يزيدون ولا ينقصون، ينشرون كل ما يصلهم بأمانة؛ ومن فرط إيثارهم يستعجلون اقتسام كل ما بحوزتهم، خاصة إذا أرفقها وضّاعُو الحديث بتحذير من الضلالة إذا تجاهلوا الرسالة، وتبشيرٍ بالخيرات إذا أرسلوا منها المئات؛

يتَملّكهم شعور بالذنب ونقص في الإيمان إن لم يطبقوا الحديث الشريف "من سألكم بالله فأجيبوه"؛ فلا يمر عليها الليل إلا وقد رُفِعت على كل المِنصات واستأنفت مسيرها إلى جميع الأنحاء. ومع الممارسات السهلة التي وفّرتها التقنيات الحديثة: "اضغط زر الإعجاب"، "شارك"، "انسخ وألصـق" صارت أحاديث الآحاد متواترة على كل الشاشات؛ وغدتْ كل الطرق مشروعة أمام الأحاديث الموضوعة.

وطالما يبدو هؤلاء الرواة الجدد طيبين للغاية ومحسنين الظن بالجميع، فهم يتناقلون دون تمحيص كل شاردة وواردة، منها الرسائل التي تأتي في هيئة رؤى منامية مليئة بالعجائب والغرائب لأحد رجال الدين مع تفاسيرها الغيبية الجاهزة (رؤية الرسول وطلب التبليغ عنه)، ومنها الأحاديث "النبوية" التي تتضمن عبارات مستحدَثة مثل "وأنا بدوري" أو "إن دل هذا على شيء فإنما يدل على" وغيرها من المؤشرات التي لا تخفى على طالب علم مبتدئ فضلا عن أهل صناعة الحديث. وبما أن الدال على الخير كفاعله، فلا عجب إنْ خَتَم دعاةُ الفضيلة هؤلاء منشوراتهم بعبارة "ولا تنسونا بخالص الدعاء"، وكأنهم فرَّجوا عنك كربة من كُرَب الدنيا.

حتى إن المتأثرين بهم، في تضرعهم إلى الله، لا يسمحون للكلمات أن تخرج مرتجَلة من أعماقهم، بلهجتهم وأشواقهم، فهم لا يدْعون الله إلا من خلال ما يجدونه مسطورا من الأدعية المختارة، يرددونها بجفاء دون أن تُجاوز حناجرهم.

ومِن منطلَق حرص رواة العالَم الافتراضي على التعجيل بالبر ومضاعفة الحسنات ينشرون المحتويات دون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءة ما يصلهم من أدعية مأثورة وختمها كما هي عادتهم بتمرير الكفَّيْن على الوجه وتقبيلهما. فالنقر على الهاتف أو الحاسوب قد يمحو الذنوب، والترويج على الفايس والواتساب يجلب الأجر والثواب، فطوبى لمن كانت لديه لائحة اتصالات طويلة! والحق يقال، اتخذ بعض الناس شبكات التواصل الاجتماعي أدوات جديدة للتدين الاستعراضي الذي يُميت مكارم الأخلاق وينشر النفاق الاجتماعي إلى أبعد مدى؛ فهذا منشور من مجهول أراد أن "يزلزل" الفيسبوك بِحَمْلة جمْع مليون صلاة على النبي مثل من يُلحّ على توقيع عريضة، وهذه رسالة "جمعة مباركة" أتت من صديق لا يصلي أراد تذكير الغافلين! وتلك تغريدة حملت أسرع دعاء مستجاب، مع التأكيد أنه مجرب ويكفي ترديده ثلاث

مرات في اليوم، لكن دون تحديد إن كان مستحَبّا قبل الأكل أو بعده.

والرواة الجدد ليسوا أشباحا تسكن عالما افتراضيا، فهم أناس لا يكتمل تدينهم الاستعراضي ويظهر زخْمُهم الشعبي إلا بعودتهم إلى حياتهم اليومية الحقيقية، حيث تمثل الطقوس الدينية الشكلية أفضل وسيلة لتمرير ادعاء الفضيلة؛ وعلى غرار أي بيئة من العالم الرقمي يكون التواصل والتفاعل على أشدهما في الاجتماعات والمناسبات.

في حفل عقيقة حضرْتُه، تَوَقَّفَ حفظة القرآن عن القراءة الجماعية؛ وبينما هم في استراحة يشربون الشاي ويزْدَرِدُون الحلوى تناول الكلمة أحد جيراني. لم يتدخل للحديث عن تجارته وإشهار الملابس التي يبيعها، وإنما لِيَجْأر بلهجة الفقه ويعطي موعظة عن الأسرة المسلمة. أخذ يشجع على تكثير النسل ويدعو إلى محاربة العزوف عن الزواج ويرغِّب في تعدد الزوجات ويوصي بحسن تربية الأطفال، مدعِّما آراءه بأحاديث نبوية كثيرة، منها ما اشتهر بالصحة ومنها الضعيف الموضوع والمنكر، عند انتهاء درسه أثْنَى عليه الحاضرون قائلين "جزاك الله خيرا".

لماذا في هذا الموقف لم يُنْكر أحدٌ على صاحبنا الحديث في الدين؟ ولماذا لم يعيبوا عليه الاستشهاد بأحاديث منسوبة زورا إلى رسول الله؟

رغم أن بضاعته في الدين مُزْجاة جاءت موعظته سائغة للحاضرين، متماهية مع نظرتهم الدينية المؤطَّرة سلفا على المقاس، كانوا ينتظرون منه السير على نفس المنوال: جُمل مفيدة عن الالتزام بشرع الله، تُؤَثَّثُ ببعض المصطلحات الفقهية، وتُقْحَم فيها آثار مروية. بعبارة أخرى، ما دام المُتَفَيْقِه المُتَحَذْلِق لا يفكر من خارج الصندوق فهو مأمون الجانب وإن لم يحفظ للعِلْم هيبته؛ لا حاجة للتدقيق في مصادره، ولِيأْتِ بما شاء من أحاديث منسوبة إلى رسول الله!

وبِمَعِيَّة ثُلَّة من "إخوانه في الله" أطاح تدريجيا بهيمنة حفظة القرآن على الحفل. فرغم المقاومة التي أبداها أنصار الطريقة التقليدية، كان الانتقال سلِسا عبرْ خلْق جوٍّ روحاني مُزدانٍ بالأناشيد والشعارات الدينية التي تتخللها التكبيرات، ومُفْعَم بشعور الاستعلاء الإيماني والانتماء إلى الصفوة التي تحرس العقيدة. بقي تيار الصحوة سيِّد الموقف حتى نهاية الحفل، مُعلنا سحب البساط

من تحت أقدام "الطلْبة"، وقد فُوِّتَتْ عليهم فرصة جنْي دخْلٍ إضافي من خلال جمْع نقودٍ يتفضل بها البسطاء من الناس مقابل الدعاء لمَرْضاهم وموتاهم، وكأنهم حلقة وصل بين الإنسان وربه، ظاهرها التعبد وباطنها الاسترزاق.

في اليوم الموالي، بمجرد أن فتح المُتَمشْيِخُ متجره شغَّل مِلفا صوتيا للقرآن المرتَّل، وبدأ كنْسَ واجهة محلِّه وتحية جيرانه من بائعي الملابس الذين يقومون بنفس الروتين اليومي قبل بدء تقاطر الزبائن. لكن نشوة الانتصار في معركة بسط السيطرة على الحفل حفَّزتْه على توسيع منطقة نفوذه، ولا مُشَاحَّةَ في ما يقْدم عليه، فقد رفَع مكبر الصوت إلى أقصى مستوى لاعتقاده أن مُقْرِئه هو الأفضل ويستحق أن يُفرَض على أسماع الباقين وإن كانوا جميعا منشغلين بتبادل المستجدات والتمنيات بيوم زاهر.

بَيْد أن الصوت المرتفع لم يكن وحده ما يقلق التجار، فهناك لوحة على واجهة متجره كُتِب عليها "بيع اللباس الشرعي"، أقَضَّت مضاجعهم بإيحائها إلى كون أزيائهم المعروضة غير شرعية، خاصة وأنهم يعتمدون على دُمْيات لعرض الملابس الجاهزة قد تكْشف ما مِن شأنه إثارة الغرائز والتحريض على الفسق والفجور. وقد عبَّرَ أبو

حسام غيرَ ما مَرة عن تحريم هذه التماثيل باعتبارها مضاهاة لخلق الله؛ وأبو حسام هذا من أبطال الليلة السابقة؛ لا أحدَ من التجار يناديه بهذا الاسم الذي يحن إلى الماضي، لكن هذا هو اللقب المخطوط على باب متجره المُنُدَسِّ بين محلات بيع الملابس، فهو محل لبيع الأجهزة الكهربائية كتب عليه "كهرباء السنة"؛ ولولا أني قرأت باللاتينية «electro sunnah» لاعْتقدتُ أنه يبيع آخر ما استجدَّ هذا العام من مُعدّات وقِطع كهربائية. لكن، ما إن تبدَّدَت الشُّبهة الأولى حتى ظهرتْ أخرى، هل يقصد كهرباء سُنِّية أم سُنَّة كهربائية؟! لم أنشغل كثيرا بهذا اللُّبس الذي يكهرب الأعصاب، وانسقْتُ مع شبهة ثالثة عنَّت لي، ما دام هناك كهرباء للسُّنَّة فلا بد أنَّ صاحِب مَحلٍّ منافس، أكثر جرأة وأشد استغلالا للدين، سبَقَه وأباح لنفسه كتابة "كهرباء القرآن". للأسف، بحثي المضني في كل أرجاء المدينة لم يُسْفر عن شيء وتبينَ خطأُ تخميني؛ وأخيرا حمدت الله أننا في المغرب وليس في المشرق، وإلا لبقيتُ لِحد الآن أبحث عن "كهرباء الشيعة".

الفصل السادس:
إخطاء الوسيلة في الرد على ازدراء الإسلام

من حين لآخر تبرُز تصرفات أو تصدُر منشورات تسيء إلى الإسلام وتستهزئ بالرسول محمد ﷺ. وقد أدى الإمعان في نشر الرسوم الكاريكاتورية بأوروبا إلى موجة استنكار واسعة من سياسيين ومفكرين ورجال دين، أجمعت على أن حرية التعبير لا يمكن أن تبرر استفزاز الغير والإساءة إلى مشاعره بشكل يؤجج الكراهية ويُقوِّض حوار الأديان ويفسد العيش المشترك. لكن آراء بعض الفقهاء المتشددة وتصرفات أتباعهم المتهورة استدعت الدعوة إلى التحلي بالحكمة والفطنة ونبذ الأعمال الغوغائية التي تُرتكب باسم الإسلام. في هذا الإطار راسلتُ أحد المشايخ المعروفين بشحن مريديهم للقيام بمظاهرات احتجاجية صاخبة ولخصتُ له موقف مجموعة من علماء الدين ببلدنا في الرسالة التالية:

يتعرض الإسلام والرسول محمد ﷺللاستهزاء، فعلينا أن ننصر ديننا ورسولنا الكريم أفرادا وجماعات عن طريق:

1. التشبث أكثر بأخلاق الإسلام

اهتداءً بجوهر القرآن والسنة النبوية لجلب الناس إلى اتباع الإسلام قولا وفعلا. قال الله تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[1].

2. نشر تعاليم الإسلام الصحيحة

بِتَجنب ترويج المأثورات التي تسيئ إلى الإسلام من أحاديث موضوعة وتأويلات شاذة.

3. الإعراض عن الجاهلين

أي نتعلق بالعلم ونتَنزَّه عن منازعة السفهاء. قال تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)[2].

4. الإيمان بأن الله ناصرٌ نبيَّه

باليقين أن الله سيكفينا شر أعداء الدين، فالله تعالى أمر نبيه بتبليغ رسالته دون الالتفات إلى المشركين، ووعده ألا يضره

1 سورة الأحزاب، الآية 21

2 سورة النساء، من الآية 140

المستهزئون. قال تعالى (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)[1].

5. الاتِّصاف بالحِلم والتصرف بعقلانية

لا بإبداء الانزعاج والانشغال بأمر الازدراء استجابة لاستفزازات الأعداء التي تُذكي إفرازات التطرف الدموية؛ فإساءة من شخص واحد قد تُلْهي أُمَّة بكاملها. قال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)[2].

6. تجنب الدعاية المجانية

لا نَردّ على الإساءة تحقيقا لدعاية مجانية لعمل سخيف. قال عمر رضي الله عنه "إن لله عبادا يمُيتون الباطل بهجره ويُحْيون الحق بذكره"[3].

لكن، بعد يوم واحد من تلقيه الرسالة أعلاه، نشر الشيخ الداعية خطابا عَمَّمه على كل متابعيه تحت هاشتاك "الصارم المسلول على

1 سورة الحجر، الآيتان 94 و95

2 سورة القصص، الآية 55

3 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو النعيم الأصفهاني، دار الفكر، بيروت، 1966، ج1، ص55.

شاتم الرسول"، هذا نصه:" إن هذه الهجمة الغربية الشرسة على الإسلام امتداد للحروب الصليبية؛ فعلينا، نحن حماة الإسلام وحراس العقيدة، أن نجمع كلمتنا على موقف واحد، فنشعل موجة غضب عارمة، نصرة لرسولنا ﷺ دون أن نلتفت إلى خطابات الذل والهوان والتخاذل التي تدعو إلى ضبط النفس بحجة صون الأعراض ودرء الفتن.لقد صار واجبا على كل مسلم غيور على دينه مقاطعة منتوجات أعداء الله؛ يا من تفيض قلوبكم بحرارة الإيمان وعزة الإسلام، عليكم بِنبْذ لُغاتهم وقطع الصلة بهم، بل أكثر من ذلك، فقد صرح شيخ الإسلام ابن تيمية:"إن مَن سب النبي ﷺمن مسلم أو كافر فإنه يجب قتله، هذا مذهب عامة أهل العلم"[1]. إن الدفاع عن رسول الله ﷺ شرفٌ لا يناله إلا مؤمن ولا يُحْرَم منه الا منافق؛ وعليه، يجب أن تتسع دائرة الغضب وتنتشر موجة الاحتجاج والثأر لرسول الله، ولا بد مِن رد حازم على الطواغيت؛ فأي مُنْكَر أعظم من السخرية من رسولنا؟ قوموا لحماية جناب رسول الله، ألم تستوعبوا عظمته؟ ألم تسمعوا قول الإمام الشافعي

1 الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، نشر الحرس الوطني السعودي، 1983، ص3.

"من استُغضب ولم يَغضب فهو حمار"؛ اعذرنا يا رسول الله، لقد قصَّرنا في حقك يا حبيب الله. يا لها من جرأة عند هؤلاء السفَلَة على نبي الإسلام! كيف يصل بهم الحقد الدفين والعداء المستحكم إلى التطاول على رسول الله؟ إن الرسول ﷺ خط أحمر، وليكن شعار حشدنا "إلا رسول الله". اللهم عليك بِهِم يا ذا الجلال والإكرام، اللهم خُذْهم أخذ عزيز مقتدر؛ اللهم أحِلَّ عليهم لعنتك، وغضبك وسخطك يا ذا الجلال والإكرام؛ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

وعلى أرض الواقع، كان الشيخ يستغل تجمعاته خارج المسجد بعد الصلوات الخمس في نشر هذه الرسالة مع الضرب على الأوتار الحساسة ودغدغة عواطف المؤمنين وتحريك أشجانهم واستجلاب دموعهم مع إظهار الحاجة إلى إغاثة المسلمين المستضعفين فيما يسميها بلاد الكفر ليسهل مُدَاراة الذين يسارعون إلى الخيرات، فيبدأ استجداء التبرعات وجمْع ما تيسر من مساهمات. وها نحن نقف على حقيقة بعض الناطقين باسم الدين، فمن الواضح أن صاحبنا يتمسح بالدين وعينه على المكاسب.

إن إشهار الورقة الدينية التي تدعي نصرة النبي ﷺ، وهي

بدعوتها إلى العنف واستباحة الدماء تربط اسمه الشريف بالقتل، تبين كيف ساهم المسلمون منذ قرون في تشويه صورة الإسلام عند غيرهم؛ وما الصور الكاريكاتورية المسيئة لدين الإسلام إلا تعبير يلخص بعض أوصاف وأخبار الرسول التي تَصَيَّدوها مما وصلهم من المسلمين عن طريق أقوالهم وأفعالهم التي تنم عن الجهالة والظلامية. واللهِ ما فعلنا بتعظيم بعض مرويات التراث إلا أن مَكَّنّا أعداء الإسلام من السخرية من نبيه! هكذا تَصيَّد الكاتب سلمان رشدي أخطاء وقع فيها المسلمون وشوّهَ من خلالها صورة الإسلام؛ فهاجمْنا كتابَه "آيات شيطانية" ولم ندحض المواد التي استقى منها ادعاءاته وكانت أساس التسمية والسخرية من دين الإسلام. وقصة الغرانيق[1] خير مثال، فقد زعم بعض السلف أن آيات من وحي الشيطان نطق بها الرسول ﷺ عند قراءته لسورة النجم، وهذه الفرية تبناها الطبري في تفسيره للقرآن وابن حجر العسقلاني في تفسيره لصحيح البخاري وابن تيمية في كتابه "منهاج السنة النبوية".

1 قيل إن رسول الله قرأ سورة النجم وسجد عند آخرها: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ، فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا}، فسجد معه المشركون أيضا. والسبب حسب المرويات دائما أن الشيطان ألقى على لسانه أثناء قراءة السورة كلمات فيها تمجيد لأصنامهم: "تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لَتُرتَجَى".

وما انفك أعداء الإسلام يؤيدون التراثيين في تشبتهم بهذه الموروثات. فهم يعتبرون هذه الخزعبلات جزءً من الدين ليسهل عليهم مهاجمته، ويرون أن تنقيح المرويات مجرد ترقيع لمعتقدات راسخات. مثلا حديث محاولة انتحار النبي الوارد في صحيح البخاري يرفضه كل من يريد أن تكون صورة الإسلام مشرقة ويتفق على إثباته السلفي والملحد والمسيحي.

أما شعار هذا النكير والنفير "إلا رسول الله" فجملةٌ غير تامة ملتبسة المعنى، والكلام المُقدَّر ابتداءً في هذا السياق هو: سبُّوا من شئتم، فنُسِيء من حيث ظننا أننا أحسنا؛ وهنا قد تشمل الإساءة الله تعالى والقرآن الكريم وباقي الأنبياء، لأن الاستثناء خصَّ الرسول ﷺ وحده؛ فهل نقبل إهانة باقي رموزنا الدينية؟ وهل نستسيغ التطاول على رموزنا الوطنية؟

الفصل السابع:
التلون في الدين، مثال: حُكم الإسلام في التطبيع مع إسرائيل!

التطبيع مع إسرائيل موضوع شائك ومعقد، له أسباب متعددة وامتدادات متشعبة، دينية وتاريخية وجغرافية وثقافية واقتصادية وأمنية، يستحيل الإحاطة بها بشكل كامل. فكيف لمسألة بهذا الحجم أن يَنْظر فيها عقل فقيه صغير ليخرج بخلاصة: هذا رأي الدين وحُكم الشرع؟! إن التطبيع مع الدولة العبرية ليس قرارا ينتظر شرعيةً يُضْفيها فقيه مقرَّب، ولا خطوةً تُوجِس خِيفَةً مِن فتوى داعية متطرف؛ إذ العلاقات الدولية والديناميات الجيوسياسية أكبر من أن يستوعبها رجل دين، خاصة إذا كان من الوُعاظ الذين التقطوا هذه المقولة من تراث الإمام الشافعي واتخذوها شعارا:

كُلُّ العُلومِ سِوى القُرآنِ مَشغَلَةٌ ۞ إِلّا الحَديثَ وَعِلمَ الفِقهِ في الدينِ

العِلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا ۞ وَما سِوى ذاكَ وَسواسُ الشَياطينِ

وأَنَّى لشيخ أن يُدرك فوائد التطبيع من مخاطره على البلاد والعباد كي يطبق قواعد الفقه الإسلامي كقاعدة درء المفاسد مقدم

على جلب المصالح؟ ولَمّا كان الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فالأمر مَنُوط بأجهزة الدولة المتعددة التي لها إمكانيات وصلاحيات القيام بأي خطوة في هذا الاتجاه.

إلا أن هذا لا يمنع الناس من تناول الموضوع بالنقاش وإبداء آرائهم في منتدياتهم على صفحات الويب ولقاءاتهم المفتوحة، ذلك ما تمَّ في برنامج حواري على إحدى فضائيات البِتْرودولار حيث استُدعِي ضيوف من تخصصات مختلفة، وأدلى كل الحاضرين بدلوهم إلى أن احتدم الجدال، واستمر اللجاج على أشده دون خطوط حمراء بارزة، وكان الهدفُ المعلنُ من استضافة فقيه من "هيئة كبار العلماء" داخل الأستوديو تبصيرَ الناس برأي الدين ومعرفةَ حكم الإسلام في التطبيع مع إسرائيل. لكن شيخ المجموعة، الذي إذا خاطب العامة اعتدل موقفُه وداهَنَ واسْتَكان واكتفى بقول آمنا، لا يفهم ألف باء السياسة وتمَّ تجاوزه بسرعة؛ فالمسكين كان تارة يقول لا تخلط السياسة بالدين وتارة أخرى يقول الإسلام دينٌ ودولة، بسبب تداخل محفوظاته واضطراب مصادره؛ في النهاية ارتأى الظهور مسايرا للأحداث، بعيدا عن الجمود، مواكبا للعصر، مُلما بفقه الواقع؛ ولَيتَه عمِل بحديث

رسول الله "من كان يومن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت". استعار الشيخ المثير للجدل وَداعة الحَمَل، فقرأ مِن ورقة علمية جهَّزها على عَجَل: "يجوز شرعا لِوليٍّ أمر المسلمين التطبيع مع إسرائيل باعتبار وجودها أصبح أمرا واقعا يجب التسليم به، فالصلح مع اليهود دلَّت عليه نصوص القرآن والسنة، ومِن هدي النبي ﷺ أن آخَى بين المسلمين واليهود في المدينة، وتوفي عليه الصلاة وسلام ودِرْعه مرهونة عند يهودي. والله سبحانه وتعالى يقول (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)؛ وهكذا عقد النبي صلح الحديبية مع مشركي قريش الذين أخذوا أموال المسلمين وديارهم (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ). وفي عصرنا الحاضر الكثير من أراضي المسلمين محتلة كما في الصين وروسيا، ومع ذلك يُقِيم المسلمون علاقات طبيعية مع المحتل تأسِّيا بالرسول الذي صالح بين المسلمين واليهود في المدينة، وفي ذلك مصالحة بين المسلمين والواقع المعيش. وعليه، إذا رأى ولي الأمر أن المصلحة العامة تقتضي التطبيع مع إسرائيل فله صلاحية المبادرة إلى ذلك مؤيَّدا برؤيتنا الفقهية، وعلى الجميع الوقوف بجانبه لأن الإسلام دين التسامح والتعايش، وكفى الله المؤمنين شر

القتال".

لكن في ظل المزايدات الرخيصة على غيره من دعاة التطرف الذين يُقحِمون الإسلام في معارك سياسية، وفي خضم السجالات الصاخبة التي تضِج بها مواقع التواصل الاجتماعي وتعج بها بعض المجموعات الخاصة حول هذا الموضوع الساخن، صرَّح الشيخ لمُريدِيه بما لم يستطع البَوْح به على القناة الفضائية الرسمية؛ فهو إذا خلا إلى أتباعه زكَّى تشددهم وأجج مشاعرهم وأذكى حقدهم وقال إني معكم، إذ كتَبَ تحت عنوان "باب ما جاء في تحريم التطبيع" رسالة موقعة بِاسْمِه الحركي تنصّ على ما يلي: "مِن منظور شرعي، التطبيع خيانة عظمى لله ولرسوله، ولكي نكون واضحين ونسمي الأشياء بمسمياتها، فالمصطلح الشرعي للتطبيع مع الكيان الصهيوني هو الولاء لليهود، ولا يجوز لأي دولة التطبيع مع أحفاد القردة والخنازير الذين جُبِلوا على الغدر والفساد في الأرض لأن ذلك يمس قضية فلسطين وهي قضية إسلامية تهم العالم الإسلامي كافة. ولا ينبغي ليّ أعناق النصوص لتبرير شرْعَنة معاهدات الصلح مع اليهود والتطبيع مع بني صهيون، فذلك استسلام واعتراف بسيادتهم على الأرض الإسلامية المغتصبة، وما أُخِذ بالقوة لا

يُسترجع إلا بالقوة، مع إيماننا الراسخ بحتمية الانتصار على اليهود في آخر الزمان، وقيام دولة الخلافة الراشدة بِبيت المقدس كما أخبر بذلك الرسول ﷺ. وإن كانت الدول الإسلامية غير قادرة على محاربة اليهود بجيوشها النظامية فليس لها عذر، إذ لا يُعْوِزها فتح الحدود للمجاهدين الراغبين في قتال دويلة إسرائيل المزعومة، فنحن قوم نحب الموت كما يعشق أعداؤنا الحياة؛ ليس لنا إلا القتال في سبيل الله، فما ترَك قومٌ الجهاد يوما إلا ابتلاهم الله بالعذاب، كما أن رُكن الولاء والبراء من عقيدتنا يُلزمنا نبذَ أي تفاوض مع العدو الصهيوني، فبالأحرى إطلاق مساعي السلام والهرولة إلى إبرام الاتفاقيات والتطبيع وإقامة علاقات صداقة، مما يؤدي إلى إضفاء الشرعية على كيان مفروض وتعطيل فريضة الجهاد،فقد قال الشيخُ محمد بن عبد الوهاب: "إنه لا يستقيم للإنسان إسلامٌ، ولو وحَّد اللهَ، وترك الشِّرْكَ؛ إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة". واللوم كل اللوم على وُلاة الأمر الذين يسَلِّمون بالقانون الدولي؛ عِوَض أن يعتصموا بحبل الله يتحاكمون إلى الأمم المتحدة، والله تعالى يقول (يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ) النساء-60. فلا أرضاً حرروا، ولا

مصالح حققوا؛ وما هي إلا مواقف شاذة وسيرجعون عنها".

هكذا إذن تنقلب الفتوى رأساً على عقب، كلام الليل يمحوه النهار! ازدواجيةٌ في المواقف وتناقضٌ داخلي صارخ لم يستطع لسان هذا الشيخ أن يخفيه، يتملص بسهولة من موقفه الذي عبرّ عنه في فتواه الأولى، متمسكا بِكَونه من الموقعين عن رب العالمين. والغريب في مسلك هذا الفقيه المتلوِّن أنه يستدعي كافة الاجتهادات الفقهية، حتى إذا أراد اللعب على الحبلين لا يعوزه التأصيل الشرعي بالاستناد إلى نصوص دينية تُسوِّغ آراءه، وكأن دين الله ألعوبة بين يديه، بل مَطِية للوصول إلى مآربه: بالحجة والبرهان، يتوجه ذو الوجهين بما يراه كلاما وجيها إلى أشياعه، وما يلبث أن يغَير وجهته بتطويع الدين منحنيا أمام إغْدَاق العَطَايا والامتيازات. وفي كلا الموقفين المتناقضين كان يقول: "هذا هو الصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإذا تكلم الكتاب والسنة فلا كلام بعدهما".

وبمنتهى العجب تَم تجسيدُ هذا التناقض على أرض الواقع عندما دعا أتباعُ الشيخ الحِرْبائي إلى مقاطعة بضائع الدول الداعمة لإسرائيل، فأنشؤوا بتطبيقات أمريكية على هواتفهم المستوردة

صفحات تدعو إلى مقاطعة الدول الداعمة لإسرائيل، تَوَّجوها بهاشتاغ "حتى نلقى الله ونحن مقاطعون" في تناغم غريب بين عقلٍ ظاهرٍ مُساير للفقيه وعقلٍ باطنٍ محب للحياة.

بهذا التفكير الزئبقي يَحدث شرخ عميق في مجتمعات المسلمين وانفصام وجداني عند المتدَيِّنين؛ وليس حول موضوع التطبيع فحسب، بل في كل المسائل الخلافية، حيث يعزف شيوخٌ تحت الطلب على نفس الأوتار، يتأرجحون بين القبول والاستنكار، ولا زال الحبل على الجرّار.

الفصل الثامن:
إلى متى التواطؤ على إخفاء الجزء العفن من التراث الفقهي؟

يحرص الدعاة والوعاظ على حصْر تداول المرويات الكارثية في أوساط الفقهاء، لكن هناك صنف من الخطباء لا يتواطأ على سترْ التراث العفن عن عموم الناس، فيسعى إلى الإثارة والظهور لكسب وُدّ الجمهور، وينتظر أن تُسلَّط عليه الأضواء عند عرضِه المواقف الشوهاء فيما انتهت إليه المذاهب الأربعة من آراء. مِن بين هؤلاء خطيبُ جمعة في مسجدٍ بالضاحية الباريسية، لم يجِدْ في حديثه عن السُّنة المطهَّرة غيرَ تَسابُق الصحابة على نُخامة رسول الله ليدلكوا بها وُجوههم؛ الأمر الذي جعلني أشعر بالحرج أمام المصلين من الفرنسيين حديثي العهد بالإسلام وأطفالي المتشبعين بالثقافة الغربية؛ فهجَرْتُ ذلك المسجد الذي يفِدُ إليه أتباع الإمام من كل حدب وصوب وهم يترقبون رؤيته وملامسة يده تَيمُّنًا ويتنافسون على الظفر بِنَفْثةِ هواءٍ غني برطوبة رِيقِه المبارك!

قصدتُ خطيبا آخر، هو عند مُحبِّيه إمام الأئمة وبدر التتمة

الذي أصبح موضع إكبار العلماء قاطبة، ورأس المصلحين الذين حفظ الله بهم الدين؛ بل مِن رُواد المسجد مَن سمّاه "بقية السلف" على غرار مصطلح "المستحاثة الحية" في علوم الحياة والأرض، ربما لأنه يحْمل آثارا مِن فِكرٍ كان يصلح لزمان مضى أو لأنه يختزن معلومات صعبة المنال أو وقَعت يدُه على مخطوطات قديمة مكنتْه من نقلٍ حصْري لمجريات أحداث تاريخ الإسلام. تقربتُ من حضْرة الإمام كما يفعل الأتباع الأوفياء، وواظبتُ على دروسه مِثل التلاميذ النُّجَباء.

في إحدى حلقات الدرس بين العشاءين، انكبَّ الشيخ على استعراض آراء أئمة الإسلام من خلال كتاب "الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع"[1] وهو يقرأ: "للمضطر أكل آدمي ميّت إذا لم يجد ميتةً غيره، لأن حرمة الحي أعظم من حرمة الميت، واستُثْنِي من ذلك إذا كان الميت نَبِيّاً فإنه لا يجوز... وأما إذا كان الميت مسلماً والمضطر كافراً فإنه لا يجوز الأكل منه لشرف الإسلام، وحيث جوَّزْنا أكل ميتة الآدمي لا يجوز طبخُها ولا شيُّها..."؛ وبينما هو كذلك إذْ مَددتُ رِجليَّ لألَمٍ أصابهما، فما كان منه إلا أن شدد عليَّ

1 مؤلَّف لشمس الدين الخطيب الشربيني، فقيه ومفسر من القرن العاشر الهجري.

النكير وأوسعني عتابا أمام الجميع، وبذلك انفلتَ الخيط الناظم من يده وانزلق إلى الحديث عن وجوب توقير العلماء ثم قفَزَ إلى سرْد آداب المسجد وأسهب فيها إلى أن حضرتْ صلاة العشاء؛ فتَحَيَّنَ بعض الحاضرين الفرصة للسخرية من جهالتي إذ لم أُلْقِ بالا لفضيلة الشيخ ولم أجِدْ ضيرا في عرقلة مسيرة العِلم! ولامَني آخرون لحرمانهم من متابعة السيناريو الشيق المتناغم مع تطلعاتهم إذ كانوا ينتظرون الإجابة على أسئلة كبرى يتوقف عليها تطور البشرية!

بعد أن هدَأَت الزوبعة التي كنتُ في قلْبها وتوقَّفَ توجيه سهام النقد صوب رِجْلَيَّ، أقيمت الصلاة ورُصَّت الصفوف. وقَف على شِمالي شاب أدار قدَمه بالزاوية التي تكفي لتَلْتَزِق كعبُه بكعبي التي عانت من الضغط والاحتكاك ما عانت، وكان علَى يميني أحد تلامذة الشيخ؛ ما أن بدأت الصلاة حتى أخذ يؤلمني بقدمه التي ألصقها بقدمي اليمنى. يا إلهي! لقد ذهب عني الخشوع، انشغلَت الأذهان بتسوية الصفوف على حساب تصفية النفوس! كلما حركتُ رِجلي مبتعدا فَرَّج رِجْليه دانيا من قدمي التي أوذِيَتْ بأحد أظافره بقدر ما أوذي عقلي بعناده! وفي جلسة التشهد الثاني تَواصَل

تضييق الخناق حيث أدى تَوَرُّكُه[1] إلى مَيَلانه بفعل انحراف مركز ثقْلِ الجسم عن موضعه المثالي، فكنتُ الدعامةَ التي تحفظ لصاحبنا توازنه وإن اختلفَتْ أضلاعي واختنقتْ أنفاسي.

بعد انقضاء الصلاة توجهتُ إلى الباب مُسرعا كأنما ورائي أَسَدٌ، فأبى ذو الأظافر الطويلة المعقوفة إلا أن يلاحق قدمي حتى بعد الصلاة، لبستُ الحذاء وقمتُ منتصبا لألمحه واقفا لي بالمرصاد، كان يراقب حركاتي عن قرب، فاستحسنَ تقديمي الرِّجل اليسرى عند الخروج لكنه شَنَّعَ عليَّ البدء بها عند لبس الحذاء؛ ولَمَّا أبديتُ استغرابي لاستحالة الجمع بين بدء الخروج باليسرى والانتعال باليمنى دون المشي حافيا شرَع في الدفاع عن رأيه مستعينا بترسانة من الموروثات الفقهية، لستُ أدري ما قيمتها أمام قوله تعالى: (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ)[2]؛ فموقفي الرافض لِحمْل النفس على المشاق وتكليفها ما لا يُطاق لم يزد صاحبنا إلا إصرارا على التعنت وإمعانا في الْتِماس الصعاب وبحثا

1 التَّوَرُّكُ: وضعية المصلي حين ينْصب رجله اليمنى عموديا بحيث تكون بطون الأصابع على الأرض ويكون عقب الرِّجل إلى الأعلى، أما الرجل اليسرى فيخرجها من الجانب الأيمن، ويجلس على مؤخرته.

2 سورة البقرة، من الآية 185.

عن شهادة زُور تقْلب الأمور، إذ اعتبرَ المشْي حافيا إلى المسجد سُنة مهجورة يجب إحياؤها، وكل ضرر يلحق البدن والنفس في سبيل ذلك يُثابُ عليه المسلم حسب قاعدته الفقهية "الأجر على قدر المشقة"، ولما عجَز لسانه عن الإقناع وكادت أن تنطِق عضلاتُه ابتلعتُ لساني وعجّلتُ بالانصراف قبل أن يدمغ فعلي بالضلال ويتهمني بتتبّع الرخص واتباع الهوى ويصرفني عن كتاب الله الذي يقول: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"[1].

في درس اليوم المُوالي كان جمهور المصلين على موعد مع باقي فقرات الكتاب التي تفتح شهية أكل لحوم البشر؛ فقد مضى الكاتب في تَرَفِه الفقهي وأَتىَ على ذِكْرِ اجتهادات بعض شيوخ الإسلام التي أفْضتْ إلى جواز قتْل تارك الصلاة، وإن لم يأذن الإمام في القتل، وأكْل لحمه هنيئا مريئا، لكن دون طبخ حتى لا تُنتهك حرمته!

هكذا تتطور الأحداث في أحد كتب السلف الصالح وتُرسَم نهاياتها المأساوية في خيال من يتلقفها بشغف وسذاجة ليتخذ من الوحشية شرعة ومنهاجا. وها أنا قد آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي منذ ذلك اليوم

1سورة الحج، من الآية 78.

أن أواظب على الصلاة في المسجد؛ فتحمُّل آلام المفاصل والصبر على وَخْز الأظافر أهْون مِن أن يعُدَّني أحدُ أشياع الشيخ من تاركي الصلاة لا سمَح الله.

وها نحن نقف من جديد على نتائج سكوت علماء الشريعة المعتبرين. في هذا العصر، أصبحت المعلومة في متناول الجميع؛ ألا يمْكن أن تعالَج الآراء الفقهية القديمة من طرف المختصين قبل أن تسقط في أيدي دعاة الضلال وعوام الناس؟ فكشفُها مع بيان عَوارِها خير من الدفاع عنها حين يلمزها أعداء الدين. فهذه المصالحة الفقهية ضرورية لتعبيد طريق التطور ومد جسور التفاهم بين فئات المجتمع.

الفصل التاسع:
بين زلَّة الفقيه وفِتنته

يعتقد جل المسلمين أن أهل العلم غير معصومين، وأن لهم على اجتهاداتهم أجرا حين يخطؤون وأجرين حين يصيبون. وهُمْ في ذلك يستندون إلى الحديث الشريف "إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ"[73]، حيث يمكن أن يكون الحاكم هو ولي أمر المسلمين الذي يجتهد أمام النوازل التي تطرأ على البلد أو القاضي الذي يجتهد للحكم بشأن القضايا المعروضة عليه. وفي كلتا الحالتين الاجتهاد مطلوب قبل إصدار أي حُكم سواء كان خاطئا أو صائبا.

لكن، هل يكفي توفر شروط الاجتهاد في عالم دين ليقوم من تلقاء نفسه بالنظر في مسألة تخص الشأن العام ويُصْدر حُكما مخالفا لما أقرَّه أو سكت عنه العلماء المعتمدون؟ مثلا، بعد إغلاق المساجد مع بداية جائحة كورونا بقرار أجمع عليه أُولُو الأمر انبرى للفتوى شيوخ من جهات غير رسمية اعتقدوا أنهم أهل للاجتهاد وأصدروا حكما فقهيا لا يجيز إغلاق المساجد. هؤلاء الشيوخ لم

يُستشاروا أصلا، وكان حُكمُهم، لخطورته وجَسِيم ضررِه، غير مرحب به. أيُؤجَرون على اجتهادهم فقط لأنهم ظنوا أنفسهم على منهج السلف الصالح ولأنهم وَصَمُوا رأيَهم بحكم الشرع؟!

وحسبَ ضوابط الفقه التي تنسجم مع أخلاقيات الخلاف، إذا تبين خطأ العالم وشاع بين الناس يجب التماس العذر له؛ ويُوصي العلماء بوجوب تنبيهه وتوجيه النصح له سِرًّا للحفاظ على هيبته، ويُحَذِّرون من مغبة التشنيع عليه وتَنَقُّصه والحطِّ مِن قدره. غيرَ أن آداب السلوك هذه ليست إلا قواعد نظرية تُذْكَر على سبيل العموم ولا تنضبط لمنطق معقول بسبب غَلَبَة مبدأ الولاء والبَرَاء الذي يُبيح الكيل بمكيالين، ويندُر أن تَجد لها تطبيقا على أرض الواقع، مثلها مثل قاعدة "الحق لا يُعْرَف بالرجال إنما يُعرف الرجالُ بالحق"؛ فرجال الدين عندما يخطؤون أو يخالفون رأي غيرهم تُحدَّد هوياتهم وتُبرَز آراؤهم الشاذة؛ وهنا نقف على ازدواجية فاضحة في المعايير، إذ يمكننا أن نُفْرِز موقفين متناقضين حسب انتماء الفقيه المخطئ.

فإذا كان الفقيه الذي جانب الصواب من مذهب مغاير أو تيار منافس فإن زلَّته يُضرَب بها الطبل ولحْمه سائغ أكْله، حيث يسرع

الشيوخ ومَن حوْلهم إلى شيطنة رأيه، يحرفون كل كلامه ليشحنوا ضده الرأي العام ويثبتوا أنه عالِمٌ سوءٍ جاء بما لم يأت به الأوائل لِيبثَّ الفتن بين المؤمنين؛ وقديما قيل: "إذا عرَفْتَ الرَّجل بالمودة، فسيئاته كلها مغفورة، وإذا عرفتَه بالعداوة، فحسناته كلها مردودة عليه". فهم يحسبون مخالفته لجماعتهم مخالفةً للدين لا خلافا محمودا، يعدُّونه جُوَيْهِلا فاقدا للأهلية أو متعالما يتعمد الانحراف والإصرار عليه؛ فيدرجون تصريحه في إطار إثارة الفتنة بالتشكيك في الثوابت التي أجمعت عليها الأمة وفي سياق الحرب التي يشنها المغرضون على الدين. وبما أن التعصب الأعمى للمذهب يزيد الجماعة تمسكا بتوسيع قاعدتي سد الذرائع ودرء الفاسد، فهُم يجتهدون في ردع الخصوم من المذاهب المنافسة ويتشددون أكثر في أحكامهم التي يُستشعَر فيها دوما التحاملُ على الغير وتُشتمُّ فيها من بعيد رائحةُ الإقصاء والإخراج من الملة، مثلما جَنَح إليه سليمان بن يوسف بن مفلح، وهو الفقيه الشافعي الذي قال "كنتُ إذا سمعتُ شخصا يقول: أخطَأَ النووي، أعتقدُ أنه كفَرَ"[1].

1 الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1349ه، ج2، ص166.

ومِن أقبح ما عليه الفصائل الإسلامية اليوم تسمية الرأي المخالف بالشُّبهة، فهذا المصطلح ذو الحمولة الدينية القدحية يجعل المعارِضين مُغْرِضين، والمُوالِين حُرّاس العقيدة. والخلاف هنا ليس بالضرورة أن يكون بين مسلم وكافر، ولا حتى بين شيعي وسني، ولا بين طوائف السنة وحركاتها من صوفية وإخوان وتبليغيين وسلفيين، ولا بين فصائل السلفية من جهادية وحركية وعلمية، بل داخل الفصيل الواحد! تجد مثلا أحد شيوخ المداخلة تابعا لربيع بن هادي المدخلي يطعن في شيوخ تابعين لمحمد بن هادي المدخلي أو لعَلِي الحلَبي. ولا يقتصر الدفاع عن كل شيخ على الإقناع بإثبات صحة منهجه ودحض آراء المنافسين؛ فالصراع صراع وجود، ولا مجال داخل المدخلية للتواجد السلمي المشترك.
يبدأ المشايخ رسائلهم التحريضية بعبارات وجوب الامتثال للأمر: "نصحتُه ولم ينتصِح"، "أنْكرتُ عليه ولم يستجب"، "صبرْنا عليه ثلاث سنوات ولم يمتثل"، "أقَمْنا عليه الحجة ولمْ يعلن توْبته"؛ ثم يختمونها بعبارات الإقصاء والرغبة في الإبادة: "طهَّر الله الأرضَ منه ومن أمثاله"، "نسأل الله أن يهديه أو أن يقصِم ظهْره"، "أدعو الله أن يُخرص لسانه عاجلاً غير آجل".

أما إذا كان الفقيه المخطئ من نفس المذهب والتوجه فإنهم يحاولون بشتى الطرق تحصينه ضد النقد وإضفاء الشرعية على أقواله تحتَ زَعْم أن "العلماء الربانيين أعلنوا أهْلِيته بالتزكية التي يتوارثونها شيخا عن شيخ إلى أن تنتهي بالصحابة الذين رضي الله عنهم من فوق سبع سماوات". فبمجرد أن ينتشر خطأ شيخهم يخرجون عن طوعهم، يَخرجون من جحورهم باحثين عن غطاء شرعي، منضبطين لفهمه المعياري للنصوص الدينية، مستهِلِّين اصطفافهم مع الموقف المنافح عن فضيلته بقولهم إن لحوم العلماء مسمومة.ويا ويل من يسفِّه آراء الشيخ! فشيخ الجماعة، وهو مَنْ هو!، يُعرَف بكونه المحدِّث الكبير والعلامة النِّحرير الذي يُشهد له بِسِعة الاطلاع وطول الباع، والعارف بالله الذي مسح الله على قلبه بمسحة الأنوار. لا الأدلة المنطقية، ولا الحقائق العلمية، ولا التجربة اليومية، لا شيء من هذا يقنع الأتْباع المخدوعين بقدر اقتناعهم بآراء شيخهم، وكأنه الممثل الشرعي والوحيد للدين!

هكذا إذن ينقسم المسلمون على أرض الواقع وعلى صفحات المواقع: مشايخ كل مذهب عند أتباعهم هم أهل الخير والصلاح الذين يجمعون الكلمة، ومَجالسهم "تنزل عليها السكينة، وتغشاها

الرحمة، وتحفها الملائكة بأجنحتها، ويذكرها الله في الملإ الأعلى، ويقال لهم في آخرها قوموا مغفورا لكم قد بُدِّلت سيئاتُكم حسنات". أما اجتماعات التيارات المنافسة فهي في نظرهم مجالس أهل الباطل والضلال التي تنْزِل عليها اللعنة، وإن كانت تُفْتَتَح -مِثل مجالسهم- بآيات من الذكر الحكيم؛ وما هي إلا مجالس سُوء يفرِّق أصحابُها صفوفَ المسلمين، يدْعون إلى الشبهات ويُزَيِّنون المعاصي؛ ولذلك تخلو من البركة ولا يرضى الله تعالى عنها.

ولمَّا كان هؤلاء المُتَمَسِّحون بالدين يتقنون اللف والدوران ولا يُشق لهم غبار في السفسطة الفقهية، فهُم لا يتركون حدَثًا مستجدا إلا اتفقوا على إخضاعه لسياق فقهي يتيح لهم أن يمرِّروا آراء أئمتهم ويَجدوا لكل الخلافات اختلافات مذهبية ولكل الأمور أحكاما دينية. والأدهى من ذلك أنهم يحرصون دائما على أن تكون لهم الكلمة الأخيرة التي لا مرية فيها، ظانِّين أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة. مع الأسف، بتبرير انحرافات من يزعمون أنهم على الصراط المستقيم تتراكم الأخطاء التي تُحسَب على الإسلام، فتشوه صورته وتُعرِّضه للاستهزاء.

ومن هذا المنطلق يجدر بنا أن نتساءل: كيف لمن يُدْمنون المُكابَرة ولا يُجيدون غير فبْرَكة المسوِّغات أن يتمكنوا من "رفع الملام عن أئمتهم الأعلام"؟!انظروا كيف يَرُدُّ أحدُهم على دليلي حتى وإن كان مِن القرآن والسنة؛ فلَهُ في ذلك ترسانة من الأدوات الكفيلة بأن تجعل منه داعية بدرجة داهية، تلَقّاها عن شيوخ أُشبِعوا عنادا وألِفُوا المراوغة وأجادوا استراتيجيات المغالطة. إذا أتيتُه بآية قرآنية تُبطل قولَه يتذرَّعَ بكون الآية منسوخة بحديث نبوي شريف. وإذا عارضته بذكر سُنة نبوية يقول إن فِعل النبي ذلك كان واقعة عين لا عموم لها وأن ذلك خص به رسولُ الله أحد الصحابة فلا يطبَّق على سائر الناس. وإذا حاججْتُه برأي صحابي جليل يرد عليَّ قائلا: لا نعْلم أن أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم وافقه على ذلك. وأما إذا عارضتُه مستشهدا برأي إمام من أئمته المصنفين في أعلى هرم الكهنوت، فيبحث عن حيلة للتستر على خطئه حيث يجد مَخرجا بإيراد إحدى العبارات التالية:

- إِنما قال ذلك على جهة التغليظ، لا على أَنه يعتقد بذلك.
- لا يُحتج بهذا الرأي، فهو محمول على كذا وكذا.
- لعلَّه قاله في أول حياته، ولا شك أنه تراجع عن رأيه في آخر

أيامه.

- ولا نعلم هل صحَّت هذه الفتوى عن الشيخ أصلاً، وهل صح النقل عنه.
- لا شك أن الفقيه كان متأثرا بحديث كذا عندما تلفظ بهذا الكلام.
- وعلى فرض صحة هذا النقل، ما يُدريك أنه لم يقصد شيئا من ذلك؟!
- هذا الكلام انفرد بذكره عنه أعداؤه، فهو كلام يُطْوى ولا يُرْوى.
- إمامنا لم يتراجع عن رأيه، ولكن له في المسألة قولان.
- كيف يَثْبُت هذا الخبرُ وقد صحَّ عن الإمام خلافُ ذلك؟!
- هذه القولة صدرت عنه مرة واحدة في حياته في حالة غضب ولم يَرجع إليها، وما هي إلا هفوة تُغْمَر في بحر حسناته.

هكذا، بهذه التخريجات السخيفة المضحكة التي لا حصر لها، يجنح إلى التبرير لا التحليل؛ وبذلك جرَت عادةُ شيوخه من أساطين الدعوة عندما يَعدَمون الحجة؛ حتى إذا حُشِر في زاوية ضيقة جدا وحُوصر بمجموعة من الأدلة القاطعة وضاقت به الحِيَل

ولم يجد بُدًّا من الإقرار بخطأ شيخه لجأ إلى أسلوب آخر من المواجهة، كأن يقول لمُحاوره: وهل يُؤخذ الدين بالعقل؟! أو يقمعه ملجما لسانه بالقول: "ويْحَك، ما بالُك تخُوض في هذه الأمور؟ أمَا كان الأَوْلى بك أن تنشغل بما يفيدك؟"، أو يُقِر ضمنيا بتنزيه شيخه عن الزلل: "نحن لا ندعي العصمة لإمامنا، لكن لا يُعرف له خطأٌ في حياته"، أو يتعلل بكون الاختلاف رحمة وأنه لا يتعدى الفروع الفقهية وأن الأمر فيه وُسْع. وقد يعدِّل موقفه تحت وطأة الواقع: "كل كلام شيخنا صحيح ما عدا بضعة أمور يسيرة تكلم عنها بعض العلماء، وهُم الأحقّ بنقده وليس كل من هب ودب".

وأمام حالة الانسداد هذه، فإن المشايخ الذين تظهر على فقههم علامات التصلب وتوثين الأئمة وتقديسهم، عِوَض أن ينخرطوا في مراجعات فكرية ويحلُّوا مشكلتَهم مع مراجعهم العليا حول أقوالهم التي تفيض كذبا وتناقضا، يَفِرون إلى الأمام متحللين من الحق، متهربين من الاعتراف بالخطأ ومواجهة الحقائق الدامغة والتصدي للأسئلة المقلقة. ومَهما يكُن وعيهم وموقفهم بشأن هذه الأزمة، فالفقه العقيم وأسلوب التفكير الجامد يتعارضان مع

بديهيّات العقل والمنطق السديد والآراء النيرة والقيم الأخلاقية النبيلة. وهذه المشكلة ليست وليدة اليوم؛ فافتقار جل الفقهاء لتقنيات التواصل وآداب الاختلاف يتضح من خلال استعدائهم للمنطق والفلسفة، ودليل فقدانهم البوصلة ما قاله ابن الصلاح، وهو من أقدم أئمتهم في الفقه والحديث: "وأما المنطق فهو مَدْخل الفلسفة، ومدخلُ الشرِّ شرٌّ"[1]. والآن برفضهم كل ما تدعو إليه الحداثة من حرية التعبير والاعتقاد يتفاقم مشكل التواصل وتدبير الاختلاف. فما مدى رغبة الفقهاء الأكاديميين في وضع مدوَّنات الفقه على طاولة البحث؟ وما مدى قدرتهم على تهذيب الفقه وتشذيب الآراء الفقهية وتقويم مسار الخطاب الديني ليتماشى مع مقتضيات العصر ويواجه التحديات الحضارية بما تفرضه من مدافعات ومجادلات فكرية؟

1 فتاوى ومسائل ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه ومعه أدب المفتي والمستفتي، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري تقي الدين ابن الصلاح، دار المعرفة، بيروت، 1986، ص 210.

الفصل العاشر:
فقه التحريم

الفقيه الذي أرتجي بَركتَه اليوم لم ألْمَحْه حين دخل الجامع ببلْغته، بل لم أرَه قط، عرفتُه فقط من خلال كتاباته على مواقع الويب ودروسه المصورة على الفضائيات. يسميه أتباعه أسدَ السُّنّة. وإن كنتُ لا ألْمَس فيه سُنة المبعوث رحمة للعالمين، فلقَب الأسد ينطبق عليه، ولَعلَّه ينتمي إلى طائفة ذَوِي اللسان الطويل التي تتمتع بِخاصِّيتَي الصوت الرهيب والوجه المتجهم. ولا غَرْوَ إن كانت اللُّبْدَة عند الأسد من السمات التي تُكْسبه لقب ملك الغابة، واللحية والعَباءة والعمامة عند الفقيه من ضرورات الاستِعلاء الإيماني واعتلاء كرسي المشيخة.

ونظرا لتسارع الأحداث لا يَبرَح أسدُنا عرينَه، فهو يُحدِّق بعين الريبة إلى كل المستجدات حوله؛ ولا يخرج إلا ليَزْأر تفاعلا مع قضايا العصر، ويُزَمْجِر تعطشا للبطش بكل مُناوِئ لا يَزْدجِر. ولأنه متكيف على الاِسْتِئْساد ومتأهب للتكشير عن الأنياب، لا يسمح لأحد من غير زُمرته بالاقتراب من مَحْميته؛ فهو يدافع بشراسة عن

خزانته التراثية، وإن كانت تعجّ ببضاعة منتهية الصلاحية، يستمد منها أدِلته الشرعية، يسوقها بمثابة مِلْكية حصرية.

ورغم أنه يردد في كل مواعظه وفتاويه القاعدة الفقهية "كل الأمور مباحة إلا ما ورد فيه نص بالتحريم"، فهو يُقحم الدين في مسائل دنيوية مباحة بالفطرة السوية وبعيدة عن ثنائية الحلال والحرام، ليختم بخلاصة التحريم بحجة أن الأمر لم يكن من هدْي المسلمين على مَر السنين، أو أنه يلحَق بمحرَّمات معروفة ويدخُل في حُكمها، أو لو كان فيه خير لسبقنا إليه الصحابة الكرام، أو أن الأمر وافدٌ من بلاد الكفر.

ويلتفُّ حول هذا الفقيه مُريدون أوفياء انتقلتْ إليهم صفة الضراوة، يبجِّلونه بقدْر تشدده وارتفاع صوته بالسب والوعيد، وينتظرون بلهف سماع خلاصته المعهودة: لقد دل الشرع على المنع. وبما أن الشيخ يرى أن التشدد دليلٌ على ورع سدنة التراث وسبيلُه لدوام تربعه على عرش سلطة الحِل والحرمة، فهو يميل إلى التضييق على الناس وخنقهم بتوسعه في المحرمات، وقد لاحظتُ عليه حذف المكروه من رُتَب الأحكام على مستجدات العصر؛ فالأمر إن لم يكن مباحا فهو حرام على أقل تقدير، ولم يُبْق في عرينه

منزلة بين المنزلتين للكراهة كما كان يفعل فقهاء السلف. بالإضافة إلى ذلك، كلما أحسَّ بتقلص نفوذه يلجأ إلى ترويج الآراء الفقهية القديمة التي تقوم على استعداء الإبداع وتحاصر الحرية الفردية، يُخرجها إلى وضَحِ النهار مع رفع السُّنة إلى رتبة الواجب لتكفير مَن لم يلتزم بها. والتعلل بالدليل من قول شاد أو رأي مهجور شأن سلفي واختصاص وهابي.

في بحثه عن الإثارة وخطف الأضواء يخوض في المسائل الخلافية في الفقه الإسلامي مسببا بلبلة بين عامة الناس وجدلا وسط رجال الدين، فيتناول موضوعه بالدراسة وِفْق نموذج ثابتٍ "النازلة في الميزان الفقهي"؛ ونادرا ما يُدخل على هذا القالب تعديلات طفيفة، ويكتفي بملء الفراغات بما يناسب الموضوع:

النازلة في الميزان الفقهي

هذا الفعل مكروه على مذهب جمهور أصوليي الأحناف وطائفة من المالكية، لحديث ......، ولا بدَّ أن نشترط هنا ألا يكون ...... لحديث ...... وإلا كان محرما، لما في ذلك من إعانة على الإثم، وهو المشهور عند أهل السنة.

ما لم يكن فيه ...... ذهب بعض الفقهاء إلى أنه جائز لقول......، وبشرط ...... عند جمهور الشافعية، على الصّحيح عندهم، وطائفة من الحنابلة لاستنادهم على حديث ......

إذا خالطه ...... فهو مكروه كراهة تحريم عند الحنفية لحديث ...... وقد أحله بعض الشافعية استنادا إلى تفسير ......

ما كان فيه ...... ونحو ذلك، فقال بتحريمه جمهور علماء السنة لعموم الأدلة المانعة ورُوِي جوازُه عن بعض السلف والخلف.

أما إن قام بذلك من أجل ...... فتلك كبيرة من الكبائر التي تصير بصاحبها إلى الكفر كما يقول ......

على هذا المنوال تَطَرَّق إلى مواضيع كثيرة لإبراز وجوه التحريم فيها مثل الغناء والتمثيل والتصوير والشطرنج واللعب بالكرة وأمورٍ أخرى أَخضَعها قسرا إلى نموذجه باعتبارها تدخل ضمن المَنهي عنه في حديثٍ ما أو الفعل المذموم المقصود بآية من الآيات.

يستهل طرحَ نموذجه بالعبارة "تضاربت آراء الفقهاء بين الإباحة والتحريم" مُوهِما المتلقي أن عرْضه سيكون موضوعيا محايدا لا يبتغي من ورائه تأجيج الحَميَّة المذهبية، خلافَ بعضِ الفقهاء الذين تمُيِّز مواقفهم من خلال عناوين كتبهم مثل "التنكيل والتقتيل لمن أباح التمثيل" و"إعلان النكير على المفتونين بالتصوير" و"الإجهاز على التلفاز"؛ ولا ينتهي حتى يُدخل المتلقي في دوامة الحرام عبرْ خُلاصة تُضْمِر تعصبه المبطن لتيار التشدد: "درءًا للفتن وسَدًّا للذرائع وإبراءً للذمة ونصحا للأمة لا يسوغ لي العدول عن حكم التحريم، فهو الأحوط الذي تطمئن إليه نفس من يستبرئ لدينه، فكونوا على بيّنة من أمركم وعلى بصيرة من دينكم، فاحذروا أن ينزل بكم عقاب الله تعالى، والزموا حدود الله (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)".

لكن تصاعُد نزعة التحريم هذه لا تمنع معظم المسلمين من

الاستمتاع بمباهج الحياة والعيش بسلام مع مستجدات العصر، مستفيدين من التقنيات الحديثة مثل الصحون اللاقطة والهواتف المصوِّرة التي حُرِّمت في بداياتها، تاركين المتشددين يسبحون ضد التيار متشبثين بسد الذرائع إزاء تعقيدات الواقع وتحديات العصر إلى أن يتراجعوا عن التحريم بحُجة عموم البلوى.

يحتل هذا الشيخ مرتبة متدنية في سُلَّم التراتبية الذي قعَّده رجال الدين، إلا أنه ينتحل خِلسةً منصب الإمام والعلاّمة والعالم الداعية والواعظ والمفتي عندما يُحس بتقلص نفوذه والحاجة إلى إحكام السيطرة على الغَوْغاءِ الذين يعتقدون أن الحِفاظ على الدين يقتضي انتظار معرفة ما يجُوز وما لا يجوز بإفراج الفقيه عن رأي الشرع في كل صغيرة وكبيرة.

و"فقهُ لا يجوز" مهنة كهنوتية أصيلة؛ هو تخصص الفقهاء الذين يهوون ضبط المخالفات الفقهية وتحرير محاضر بشأنها، الذين يقصدهم الناس في كل ما يصادفونه في الحياة اليومية، أو إذا أشكلت عليهم مسألة؛ فيجدون حينئذ الفرصة لتبرير وجودهم كقادة للرأي الديني ولتكريس احتكارِهم سلطة المنع التي تُواري الأهلية العلمية. فآمل ألاّ يمُنح جواز العبور إلى عالَم الغد، فهو فقهٌ

لا يجوز. ويجب ألاَّ يُعتمَد على الطفرات التي تحدث من حين لآخر في فكر هؤلاء الفقهاء حين يصِير الحرام حلالا على حين غفلة من الناس كما حدث مؤخرا، حيث اكتشفت هيئة كبار العلماء أدلة قوية على جواز سياقة المرأة للسيارة، واختفت فجأة دواعي التحريم المستمدة من الكتاب والسنة؛ بل حتى الآثار الجانبية للسياقة على صحة المرأة التي وصفها بعض الشيوخ اتّضَح الآن، بعد التثعلب في الاستدلال، أنها مجرد توهمات نفسية تم التغلب عليها. والسيارة في بدايتها لم تحرَّم على المرأة وحدها فقد أفتى رجالُ دين بتحريمها على الجميع كما حرموا الدراجة الهوائية وسمَّوْها حصان إبليس.

الفصل الحادي عشر:
التحريم جاهزٌ، عَلامَ الدوْرُ الآن؟

أذْكر ذات مرة حين كنت أرافق أصدقاء حيِّنا الهامشي إلى المسجد: جمعَنا فقيه بعد صلاة المغرب، وباغتَنا بسلسلة من العَنْعنات ومجموعة من التفاسير المُسترسَلة ليَخْلُص إلى تحريم التصوير ويُخَلِّصنا من كل الصور التي قال إنها تمنع دخول الملائكة إلى بيوتنا. وعلى إثر هذه الموعظة غير النظامية أسرعتُ إلى المنزل لأمزق كل صُوَر العائلة وأحرقها حرْقا قبل أن يحل عليَّ غضب الله الذي تَوعَّد به مرتكبي كبائر الذنوب.

أُحرِقَت الصور الفوتوغرافية ومعها أحرِقتْ ذكريات الطفولة واختفتْ وجوه أعزاء أبعدهم الموت عنّا. وبعد أيام قلائل، جاء الداعية بموعظة ثانية وصَفَع وجوهَ الحاضرين بفتوى جديدة حيث حَرَّم شيئا آخر مألوفا، هو الحلزون، طبعا كان يقصد أكل الحلزون لا تصويره، وقد استند في تحريمه إلى رأي جمهور العلماء الذين حرَّموا الحلزون البرّي بعدما صنَّفوه ضمن الحشرات مثلما فعلوا مع الوزَغة والحية والفأر؛ لكنه، وأمام ذهول الجميع، تنكَّر لفتواه

السابقة بل تراجعَ عنها بإجازته التصوير مطْلَقا دون أن يَكْترِث لما اسْتَقاه سابقا من أمهات مصادر الحديث من صِحاح ومَسانيد وسُنن.

لم أهتم آنذاك بإخراجنا من الحرب البيولوجية على الحلزون وإدخالنا في حروب مذهبية لا قِبَل لنا بها، فقد كان بالي مشغولا بالصور التي حُرِقَتْ وجوبا لا استحبابا. ندمتُ على ما فعلتُ بكل الألبومات التي كانت مُرَتبة بعناية ومخبأة في مكان آمن بالمنزل؛ وطفِقتُ أسأل الناس يومَها بسذاجة متناهية عن "أمين الفقهاء" لأشتكي إليه سوء صنيع الفقيه بفتواه في نسختها الأولى. لكن خاب أملي، فقد أجمع رُواد المسجد من بُسطاء التجار والحِرفيين أن الفقهاء لا أمين لهم، وأنهم يعملون لوجه الله؛ وعن صُوَري قالوا إن أجري على الله. وما زاد من حسرتي حديثُ بعضِهم عن اكتساب شيخنا المجتهد لأكثر من ثلاثة أجور عند الله، ما بين فتوى تحريم التصوير وفتوى إباحته. وحيث إن صاحبنا كان يرى أن لتصرفاته مُنطلَقات إيمانية ومُخْرَجات دعوية، فقد آلَى على نفسه ألا يفَرط في تجارة لا تبور، لا بتداول أسهم ارتفعت أسعارها وإنما بالرهان على ما يدعي قوله وفعله بدافع التقرب إلى الله ونيل خير

الجزاء من غير كد ولا عناء، وإن أخطأ في حق العباد وألحق بهم الخسارة في الدنيا والآخرة.

وما أعجبَ ما يحدُث للنصوص التراثية روايةً وتفسيرا حين يريد أحد الشيوخ الانتقال من التحريم إلى الحِل! فقد فوجئت بسرعة انتقال الفقيه من تحريم التصوير إلى تحليله مُتأرْجِحا بين الأجر والأجرين، إذ كان يكفيه إعادة توجيه المرويات الموروثة والاستعانة ببعض الروايات المعدَّلة مذهبيا بشكل يبعث على استهجان الدين، في عملية ترقيعية تبدو أسهل بكثير من معالجة صورة ببرمجية الفوتوشوب أو إزالة تشوه بسيط في عيادة اختصاصي التجميل.

النتيجة الكارثية للعبث بالتراث الديني والتلاعب بعقول المتدينين جعلتني أدرك يومها أن لشيخي حصانة فقهية ولامسؤولية تعفيه من الملاحقة الجزائية عند الانحرافات الفقهية الخطيرة، وأن علينا العيش بحذر مع كيان مجردٍ زئبقي في ميدان محفوف بالمزالق، لا يثبت على حال واحد إزاء جل القضايا؛ يتملص بسهولة من آرائه السابقة في حين يتمسك بفتاوى مرت عليها مئات السنين دون أن يعبأ بمواثيق تؤطر عمله ولا هيئات مراقبة تحاسبه.

وكثيرة هي المواقف المشابهة التي تنم عن التصحر الفكري والانفلات الفقهي؛ فهي لا تقتصر على مذهب مُعَين ولا تقف عند حدود بلد واحد. ولو أن التسلط الفقهي اكتفى باستهداف المتدينين المترددين على المساجد لَهَانَ الأمرُ، غير أنه، ويا للأسف، صار يتربص بالجميع عبر شاشات التلفاز والهاتف التي أضحت مآلا للآراء المتشددة، حيث تُوفر صفحات الويب وشبكات التواصل الاجتماعي ملاذا فقهيا مِثاليا للمتفَيْقِهين والوعاظ غير الرسميين. وأكثر مَن ينجذب إليها السُّذَّج والأمِّيون؛ وعبْرهم تتغلغل داخل الطبقات والفئات الأخرى، لينشغل المجتمع الإسلامي بتضارب الآراء الفقهية في سفاسف الأمور، فيكون لنا الكلام والأوهام ولغيرنا العمل والنجاح.

وقد شكَّل سماحُ الاتحاد الأوربي بإدخال مسحوق الحشرات في الأطعمة موضوعا خصبا لبعض رجال الدين. ركبوا على الموجة وأدلوا بدلوهم متجرئين على الفتوى لاستدامة تسلطهم على عقول عامة المسلمين، رغم أن المسألة -دون الغوص في الخلفيات والأبعاد- تحْكُمها عادات غذائية وأعراف مجتمعية وعوامل نفسية تتعلق بسلامة الذوق، ولا دخل للنصوص الدينية في الحكم عليها.

الآن، في بعض الدول العربية الشرقية يُقبِل الناس على أكل الجراد ويشمئزون من أكل الحلزون، والعكس هنا عند معظم المغاربة؛ إذن، على الإنسان ألا ينتظر رأيا شرعيا من فقيه يفتي وفق ذوقه. مَن يتقزز مِن الصراصير والخنافس والديدان سيتجنب استهلاك دقيق الحشرات وإن اقتنع بكونه مغذيا ومفيدا للصحة، وأما مَن يسْتسيغها فهي له مِن الطيبات مجمَّدة أو مجففة أو مطحونة، وبالصحة والهناء.

الفصل الثاني عشر:
عندما يتطاول الفقيه على عِلم الله

من غرائب شيخي التي لا تنتهي أنه يُحذِّر الناس من القول على الله بغير علم، ويدعو إلى تعظيم حرمات الإسلام، ويُنْحي باللائمة على شيوخ يزكون أنفسهم ولا يتورعون من التصدي للإفتاء، وفي نفس الوقت ينسب إلى الله ما لم يقله مُعرِّضا الوحي للاستهزاء، ويستعمل عبارات تُوهِم أنه نال محبة الله في أرضه وملكوته، ويَزُجّ بالدين زجا في كل خلافاته، إذ يتوسل بالقرآن في غير موضعه ويوزع على الناس رضى الله وسخطه. وأعْرضُ هـٰهنا أمثلة من أقوال شيخي الجليل الذي يهتم بتأصيل الدليل ويخْطِئ التنزيل؛ ولعل هذه الاستشهادات خير مثال على واقع الحال، فبالمثال يتضح المقال.

أولًا: يقصد الشيخ إسباغ صفة الربانية على أقواله وأفعاله لإنجاح مسعاه في ما يراه أسْلَمَة المجتمع.

عندما يرُدُّ على منتقدي مذهبه يقحم آية من القرآن أو جزءً منها ليُستفاد من السياق أنَّ مؤيدًا بالله يواجه قوما ظالمين، بينما هو لا يستقوي بكلام الله تعالى إلا ليغطي على ضُعف حُججه. فانظروا

كيف يتحايل بتسخير آيات قرآنية في أقوال يتطابق فيها المفهوم مع المنطوق قسْرا بالتَقوُّل على الله تعالى!

- ما زالوا يقفون في وجه دعوتنا بتشجيع التصوف، ولكن تبقى كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا.
- هل بلَغ بهم الأمر أن يطبِّعوا مع العدُو؟! يمْكُرُونَ وَيمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.
- لن يفلحوا في ثني المسلمات عن ارتداء النقاب، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً.
- يقولون إن الإسلام يقْبل الديمقراطية، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا.
- نحارب آراءهم خطوة خطوة إلى أن يحين وقت القضاء عليهم، وصدق الله إذ يقول: **(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)**[1].
- حينما يُبيحون الغناء والموسيقى يفترون على الشرع، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا.

1 سورة الأنبياء، من الآية 18

- لقد تمادَوا في التشبه بالكفار كأنهم أمِنوا مكر الله، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا القومُ الخاسِرون.
- هؤلاء من سيفك الحصار عن أهل غزة ... فَسَتَذْكُرُوْنَ مَا أَقُوْلُ لَكُمْ وأُفَوِّضُ أمْرِي إلى اللهِ، إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبَادِ.

وعندما يقدِّم طرحَه في مسألة تناولها فقهاء آخرون -يراهم غير جديرين بحمل الأمانة- لا يَجدُ بُدّا من استعمال عبارات تفضح رغبتَه في اختطاف الخطاب الديني وتُوحي أن الإسلام مختزَلٌ في مذهبه، وأن جماعته هي من تمثل المسلمين. والحقيقة أنَّ نصْب الفقيه العداءَ لمخالِفِيه ليس لِأخطاء ارتكبوها وإنما هو الخوف مِن فقْد الوصاية وتضاؤل المكانة؛ لقد اتخذ من وصايته المزعومة على الدين سبيلا للدفاع عنه بلسان من يدعي العصمة. هذا ما يتبين من خلال تشدُّقِه بالعبارات التالية، ففيها من الرغبة في احتكار الدين ما لا يخفى:

- لتبيان الوجه الشرعي في هذه النازلة نقول ...
- لِنضَعْ هذه المسألة في ميزان الإسلام!
- أتيْتُكم بالقول الفصل والجواب الشافي في هذا الأمر.

- يجب أن نَنْهاهم عنها غضبا لله وغيرة على دينه وانتصارا لشرعه.
- أتريد مِنَّا أن نصمُتَ ونترك الدين عُرضةً للهجوم؟!

ثانياً: يزكي الشيخ نفسَه ويحْصل على التزكية من مُريديه.

دأب هذا الشيخ على مدح نفسه، وإن امتنع يوما يمدح المذهب الذي يعلن الانتماء إليه أو يطعن في منهج غيره من الفقهاء. ويزكي الفقيه أتباعه بمناداتهم "يا أحباب الله"، وكلما صدقوا أن الله يحبهم زادوا ثناء وتزكية لفضيلته وإرضاء لتحيزه المذهبي بمشاركته الافْتِئات على رب العالمين. وتعالوا نكتشف هذه العلاقة "الربانية" التي تربط فضيلة الشيخ بمريديه عبرْ هذه الأمثلة الجارية على ألْسِنتهم المدَلِّسة بذكر الله!

- نتقرب إلى الله بملازمة شيخنا الذي تتجلى فيه النفحات الإلهية والهبات الربانية.
- لا نجاة لأولئك الضالين من عذاب الله إلا باتباع هذا الطريق، طريق الفرقة الناجية.
- نُجِلُّ شيخنا وغيره من علماء تلك البقعة الطاهرة الذينَ أكرمَهُم

المولى بالاعتقادِ الحق.

- الحمد لله الذي مكَّننا من نشر هذه الدعوة ومحاربة القبورية.
- هذه الدروس المباركة هي آخر ما فتح به الباري سبحانه على شيخنا الجليل، ولا نزكي على الله أحدا.
- مِن مناقب إمامنا أن اصطفاه الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته.

ثالثا: يغْترُّ الشيخ وأتباعه بمُداوَمَتهم على الطاعات وشعورهم بالامتلاء الروحي.

والعجب كل العجب أن يصل بهم الغرور لدرجة أنهم يأمَنون عذاب الله، بل إنهم يشيرون إلى أنهم ماضون في طريقهم إلى الفردوس الأعلى، يدخلونه من غير حساب ولا عذاب؛ هذا ما نلمسه من استشهاداتهم بآيات قرآنية. ولَمّا كانت استشهاداتهم في غير محلها فقد مضوا يلفِّقون التطابق بين الآية والسياق في انتهاك واضح لقداسة القرآن. وأسوق إليكم هذه المغالطات المكشوفة التي يتجرؤون فيها على كتاب الله باعتبارهم المقصودين بآية من آيات القرآن:

- زَهِدَ إمامنا في هذه الدنيا، فكان ممَّنْ صحَّ فيهم قول الله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي

الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[1].

- إنهم رجال نذَروا أنفسهم لمحاربة الفِرَق الضالة، فسلكوا بذلك طريق الذين قال فيهم البارئ عز وجل (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[2].
- شيوخنا الأفاضل (صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)، فاجتمعت فيه صفات الذين قال الله فيهم (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[3].

ولَيْتَ الفقيه وأتباعه، إذْ أنزلوا كلام الله في غير موضعه، وقفوا عند حد إحساسهم بالأمن من عذاب الله؛ لكنهم يحكمون على مُخالِفيهم بالهلاك وسوء العاقبة، وكأن بِيَدِهم مفاتيح خزائن رحمة الله، يصْرفونها عمن يشاؤون. وأستعرض بعض ما يقوله كبير الدعاة هذا بأسلوب فظ غليظ في تعبيره عن القطع بمصائر العباد في الآخرة وتحديد من هم أصحاب النار، فتأملوا افتراءات الفقيه الذي يطَّلع على ما تخفي النفوس!

1 سورة القصص، الآية 83

2 سورة يونس، الآية 62

3 سورة المؤمنون، الآيتان 10 و11

- لا ينبغي الترحم على تلك الضالّة، فمَثْواها جهنم وبئس المصير.

- إن الله عاقب ذلك اللاعب لأنه أفطر في رمضان، لقد نزل فيه حكم الله من فوق سبع سماوات.

- ولا شك أن المؤلِّف قد تعرض لغضب الله تعالى لأنه أنكرَ عذاب القبر.

- أيُّ مسلمين هؤلاء، وهم يغلقون المساجد ويغضبون الله ورسوله؟!

- ألا تخافون أن يسألكم الله يوم القيامة عن سكوتكم عن الجهر بالحق في وجه هؤلاء الضالين؟!

- لا تلتفتوا إلى المبتدعين، إلى من أعمى الله بصيرتهم وأخزاهم في الدنيا والآخرة.

- ماذا جَنيْتم من الاحتفال برأس السنة سوى لعنة الله؟!

رابعا: يعتبر الفقيه نفسَــه خليفة الله في أرضــه، يُصْــدر أحكاما بقبول أو رفض شعائر العباد ووجوب تنفيذ ما يعتقده شرع الله.

يخاطب الناس انطلاقا من فوقية معرفية وإيمانية بزعمه ممثِّلا

لإرادة الله. فتعالوا نسلط الضوء على بعض مما يقول بهذا الصدد مع تعليق وجيز بين قوسين لبيان هذا المسلك المعِيب:

- إن صلاتك غير مقبولة.

(الصلاة صِلةٌ بين العبد وخالقه، فمن أطلعه على الغيب؟!)

- يجب أن ينفَّذ حكْمُ الله في هذا المارق حتى يذوق وبال أمره.

(من خوّل لهذا الفقيه احتكار فهم الدين والعمل به لمحاسبة شخص بعقابه على آرائه واعتقاده؟ والأدهى نسبة ذلك إلى الله تعالى!)

- صيام الفتاة غير المحجبة لا يُحتسب.

(أليست الأعمال بالنيات؟! ربما أُوتيَِ الشيخُ قراءةَ النوايا فرأى في هذا الصيام رياء!)

- الخطيب الذي لم تكن خطبتُه يوم أمس الجمعة عن نصرة رسول الله فليراجع إسلامه، فإنه على خطر عظيم!

(أيُشترط في إسلام المرء أن تنطبق نظرته إلى العالَم مع نظرة فضيلة الشيخ في الزمان والمكان والوسيلة ؟!)

- أنكِروا عليهم الاحتفال بعيد المولد النبوي، واحتسِبوا الأجر

على الله!

(لستُ هنا بصدد تقييم الحُكْم الضِّمني الذي أصدره الواعظ على الاحتفال بعيد المولد، فهذا موضوعُ حراكٍ فقهي عقيم ودوري يتجدد كل سَنة إلى أجل غير مسمى! ولكنا أمام حالة لرفض الاختلاف في الرأي مع التلويح بالثواب والعقاب، فهذه مُواربة واستخفاف بعقول الأتباع لدفعهم إلى التسليم المطلق بآراء الشيخ).

خامســا: يردد ســماحة الشــيخ عبارتين هَالَنِي فيهما التَّأَلّي على الله، مشهورتين على ألْسِنة الكثير من الفقهاء.

ليس غريبا أن يحرص شيخي على تحرِّي الاقتداء بالسلف متَّبِعا ما وجد عليه شيوخه؛ لكن الآن، وهو أمام عبارتين فيهما تقَوُّل على الله عز وجل، ألا يحق له أن يجرِّب استعمال عقله مرة والخروج عن الجماعة يوما في تمرد فريد على عقلية القطيع؟!

1. الفتوى توقيع عن رب العالمين

إن الذي يسمع هذه الدعوى يجد نفسه مضطرا إلى طرح عدة أسئلة: أولا، هل فوض الله لأحد التوقيع باسمه؟ فالرسول محمد ﷺ رغم عصمته في الرسالة لم يكلَّف إلا بالبلاغ! ثانيا، عندما

تتناقض الفتاوى، هل ننسبها كلها إلى الله أم نبحث عَمَّن زَوّر التوقيع ضِمن المفْتِين الموقعين بالوكالة؟! إنه لَمَعتوهٌ من يصدق هذه الترَّهات! ثالثا، هل قبول الفتوى يَرجِع إلى أَدِلتها أم إلى اتكائها على مصدرها "الإلهي"؟ وهنا تكمن المغالطة!

إن في هذا التصريح سوء أدب مع الله، خاصة في عصرنا الحالي حيث تتيح التقنيات الحديثة للمشايخ أن يتبرعوا بفتاوى تتدفق بسيولة فائقة إلى كل بقاع العالم، وما هذه الفتاوى التي يعتبرونها تجسيدا لإرادة الله إلا اجتهادات بشرية يشوبها النقص ويطبعها الاختلاف، ورغم ذلك يختمونها بتوقيع واحد يقولون إنه من عند الله. ومن جرأة افترائهم وتقوُّلهم على الله أن جعلوا في الإسلام كهنوتا من رجال الدين كحلقة وصل بين الله والناس؛ وقد عمَّ هذا الكهنوت وطمَّ باعتماد أقوال السلف مثل «العالِم بين الله تعالى وخلْقه، فلينظر كيف يدخل بينهم»[1] لابن المنكدر، و"المفتي هو المبلغ عن اللَّـه تعالى، والواسطة بين اللَّـه وخلقه في بيان

1 آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، محيي الدين يحيى بن شرف النووي أبو زكريا، دار الفكر، دمشق، 1988.

الحلال والحرام لمن استفتاه"[1] لابن القيم، وهو "المترجم عن الله في الإخبار عن الحكم الشرعي"[2] للقرافي.

2. أسباب نزول آية

بتصفح كتب تفسير القرآن التي ترك السلف نجد أنفسنا أحيانا أمام آية واحدة وثلاثة أسباب نزول!

وحسب هذه الكتب، الآيات التي وردت بشأنها "أسباب نزول" قليلة، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال: هل باقي الآيات القرآنية نزلت بدون سبب؟! طبعا لا، فالقرآن كله هداية، ولا مبرر لصناعة أسباب نزول لآيات القرآن والتشديد على أنه لولا السبب المطروح ما نزلت الآية! وبالمقابل، في صفحات هذه الكتب هناك آيات لكل واحدة منها أسباب نزول متضاربة.

والقول إن الله أنزل آية من الآيات بسبب حدث محدد بالضبط يُعَدُّ رجما بالغيب ما لم يُبَيِّنه الوحي، فكيف يأتي أحدُهم جازما بسبب نزول آية، وثانٍ يحدد سببا آخر لنزولها، وثالثٌ يربطها بحدث

1 إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012.

2الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1995.

مخالف لما سبق؟! ألا يرى أولئك الذين جمعوا في أذهانهم ثلاثة أسباب نزول لآية واحدة أنهم أمام حالتين على الأقل من الكذب على الله؟! وهذا يدل دلالة لا لبس فيها على أن استِمراء الاختلاف في سبب النزول غير معقول، وإن تعددت الوقائع المتزامنة مع نزول الآية. والاعتقاد بارتباط آية بحدث، سببا أو مناسبة أو سياقا، غير ملزم للمسلمين ما لم يبلغهم أن الله أطلع رسوله عليه.

الفصل الثالث عشر:
كيف يسْتصغِر الفقيهُ عقولَ الناس؟

أحيانا ننْخدِع بتبريرات واهية، فقط لأنها أتتْ على لسانِ داعية؛ فمَنْ مِنَّا لم تنطَلِ عليه مُغالَطة فقهية لم يكتشفها إلا بعد أن صدَّق نقيضَها؟ ومَنْ مِنَّا لم يسمع بمثل هذا الاستدلال "ومما يدلُّ على إعلاء الإسلام من شأن المرأة أن سورة كاملة في القرآن تحمل اسم النساء"؟!

إن المواعظ الدينية تتضمن الكثير من أمثال هذه العبارة التي تشهد على مدى استخفاف بعض الفقهاء بعقول الناس واستمالتهم من خلال السفسطة الخادعة لا الإقناع بالعقل والمنطق السليم. والمثال موضع النقد هنا يستفز المتلقِّي مهما كان رَصينا هادئا، إذ للوهلة الأولى يتبادر إلى ذهنه الردُّ المناسب؛ وبِوُسع القارئ الكريم أن يجد مِن أسماء السُّوَر ما يفنِّد هذا الطرح (المنافقون، الجن ...)؛ كما أُعَوِّل على ذكائه في قصْر البحث على أسماء السور وليس أجزاء منها كما يُوهم النعتُ "كاملة"، فليس لأجزاء السور أسماء حتى يبحث عنها. ومن مغالطاتهم المرتبطة أيضا بالمرأة أن

مِن دواعي زواج القاصرات في سن الطفولة سرعة نُضْج الإناث في البلاد الحارة، فهذه دعوى لم تُثْبِتها أي أبحاث علمية، ولكن الناس يَتَغابَوْن حتى لا يضطروا إلى الاعتراض على الفقيه، وبذلك تبقى الممانَعة منعدمة والانقياد أعمى. ومثل هذه المغالطة قولُ بعض رجال الدين إن من حِكَم إباحة تَعدُّد الزوجات في الإسلام أن نسبة الإناث في العالَم تفُوق نسبة الذكور، فهذه الخدعة التي نشرها في القرن الماضي دُعاةٌ لم يتخلصوا من ترسُّبات الفقه الذكوري ما زالت تلقى رواجا في عصر الأنترنت الذي يضع أمامنا كل الإحصائيات[1] التي تكذِّبها.

وقبْل استعراض نماذج شائعة أخرى من استغباء المخاطَبين عبر أقوال فاسدة ومناهج كاسدة لبعض الوُعّاظ، تعالوا نرى كيف يتم التحضير لتسطيح العقول في أوضح صُوَرِه واستجلاب المزيد من الإِمَّعة بالتلقين الجماعي.

نُودِيَ لصلاة الجمعة وغَصَّ المسجد بالمصلين واعتلى المنبرَ شيخٌ بِلحية تتمدد في جميع الاتجاهات، وقد الْتَحفَ بأَردية بعضها

1- نسبة النساء تساوي تقريبا نسبة الرجال في المُجتمعات عامة. في العالم، هناك 101 رجل لكل 100 امرأة (إحصائيات 2021، الأمم المتحدة).

فوق بعضٍ مشَكِّلة خلفية بيضاء لِعصا غليظة داكنة أخذَ يُداعبها بلطف وهو يستهل الخطبة بمقدمة مليئة بالسجع، يكررها كل جمعة ويقرأها بلحن يجلب النوم. لكن، ما أنْ بدأ عرْض موضوعه وانشغل بالنهي والتحريم والاستنكار والتكفير لقراءته المتطرفة والانتقائية للآراء الفقهية حتى تسارعتْ وتيرة الخطبة واشتدَّت لهجتها، فصارت العصا في يده رمزا للتسلط والغطرسة، يهزُّها هزا ويُسمع لها طرقٌ كلما علا صوته بالوعد والوعيد. وكان صاحبنا، حين تجهُّمِ وجْهِه وتهجُّمِ لسانه، يَعمِد إلى إشباع حديثه بالأهوال التي ينتقيها بعناية فائقة من الحقل المعجمي لجهنم مثلما يعتني بمظهره الذي يفرض الهيبة ويكرس الاستعلاء الإيماني ويضمن الاعتبار الاجتماعي.

وجاءت خطبة الشيخ ردًّا على انتقادِ تشبُّثِ فقهاء مذهبه بالنصوص التراثية التي أتبث العلْمُ الحديثُ بُطلانَها. فشرَع يُبَرِّئ تراثَ السلف الصالح من التخلف ويتعلل بكون العِلم قاصرا والأبحاث في بداياتها والحقائق العلمية غير ثابتة، وقد كان قبل أيام -عندما كان متحمسا لإثبات ما رآه إعجازا علميا للقرآن الكريم- يتحدث عن الحقائق العلمية التي نزلت على الرسول محمد ﷺ ولم

تُكتشَف إلا في العصر الحديث بفضل التطور العلمي والتقدم التكنولوجي. هكذا يكون العلم التجريبي تارة متقدما وتارة متأخرا[1]، وِفْق المنحى الذي يريد!

ولنُصرة مذهبه الذي يتعصب إليه حتى النخاع أشار إلى حتمية انقسام أمة سيدنا محمد إلى ثلاث وسبعين فِرقة كلها في النار إلا واحدة، طبعا هو على رأس فرقته الناجية! أما الآن وقد أقصى باقي الجماعات الإسلامية وحكَمَ بدخولها النار، نسِيَ أنه كغيره من المشايخ الأفاضل ما فتئ يَحُثّ على نبذ الفُرقة ويدعو إلى لَمَّ شمل المسلمين وتوحيد الأمة الإسلامية.

1 جاء في فتاوى دار الإفتاء المصرية (1986/6): "ومن هذا يتبين مشروعية ختان الأنثى، وأنه من محاسن الفطرة وله أثر محمود في السير بها إلى الاعتدال، وأما آراء الأطباء عن مضار ختان الأنثى فإنها آراء فردية لا تستند إلى أساس علمي متفق عليه، ولم تصبح نظرية علمية مقررة. على أن النظريات الطبية في الأمراض وطرق علاجها ليست مستقرة ولا ثابتة، بل تتغير مع الزمن واستمرار البحث، فلا يصح الاستناد إليها في استنكار الختان الذي رأى الشارع الحكيم الخبير العليم حكمته وتقويماً للفطرة الإنسانية، وقد علمتنا التجارب أن الحوادث على طول الزمن تُظهر لنا ما قد يخفى علينا من حكمة الشارع فيما شرعه لنا من أحكام، وهدانا إليه من سنن".

هكذا الشيخ كعادته، لا يجد غضاضة في الجمع بين قولين متناقضين ما دام يتوسَّم الغباءَ في مستمعيه الإمَّعة؛ وما أراه إلا مستخفا بالعقول مرة أخرى، فما عهدتُه يوما يلجم لسانه عن إطلاق مغالطاته الشوهاء من الكتب الصفراء إلى العقول الجرداء التي تستقبل الخطاب ضمن استراتيجية إقناعية قوامها الطاعة العمياء.

وأمرُّ إلى جرْد بعض المقُولات التي أتت على لسان هذا الشيخ وغيره من الدعاة في معرض دفاعهم عن الإسلام حسب منظورهم؛ ويتعلق الأمر بتصريحات يمتعض منها أهل العلم الجديرون بحمل هذا اللقب ويعتبرونها مجرد هلْوسات فقهية لأهل الجهالة؛ فهي تحوي تعليلات يَظهر زيفُها من النظرة الأولى ومغالطات أكبر من أن يبتلعها السُّذَّج فضلا عن الأذكياء.

- "لقد شرَعَ الله صيامَ رمضان لنحِسَّ بجوع الفقير".

إن ما يستأثر بالانتباه هنا هو التزام فقراء المسلمين بصيام رمضان وقد خَبَرَوا تأثيرات الجوع. وما يستوقف الفكر هو تلك الحكمة المزعومة من الصيام؛ فعلى هذا الاعتبار، يكفي الأغنياءَ صيامُ بضعة أيام للإحساس بجوع الفقير .

- "أدعوكم مِنْ علىَ مِنبر رسول الله".

الخطيب الذي لا يستحيي من أن ينسب منبره إلى رسول الله يُوهِم المصلين أن كلامه هو كلام رسول الله ومخالفته معصية لأوامر الله، وما عليهم إلى الخضوع لآرائه وترك العقل جانبا. ولا تقتصر مغالطة المَنْشَأ هذه على المنبر، فهي تتعداه إلى قبرْ الرسول حيث تجد الآنَ من يذْكُر مَناقِب شيخِه قائلا بِنبْرة مُسيلة للدموع: "لقد مكَثَ بالمدينة المنورة ثلاث سنين مجاوِرا لرسول الله" متناسيا أنه أثناء حياة الرسول في المدينة كان مِمَّن حوْله من الأعراب منافقون.

وعلى ذِكر المنبر، بل عليه مباشرةً، ظهرت مغالطة من النوع الفاخر، فِعلية لا قولية، تمثلتْ في تظاهر الخطيب بالموت أثناء نطق الشهادتين. وهذا محض تمثيل له تأثيرُ مقالب الكاميرا الخفية، إلا أن الذي وقع ضحية هذا المشهد هو جمهور المصلين الذين حضروا الخطبة الهجينة، الذين قالوا متأثرين "اللهم ارزقنا حسن الخاتمة" وقال لسان حالهم من بعد ما اتّضحتْ حقيقة التمويه الجسدي "حتى كلمة التوحيد نُطِقت زورا! ما زال الكذب مستمرا بحجة ترغيب الناس في العمل للآخرة كما كان يقصد بعضُ

وضاعي الحديث، فكيف نحافظ على الثقة فِي مَنْ استأمناهم على الدين فاستغفلونا؟!".

- "لم أكن أهتم بأمر المجاهدين، لكن الله عز وجل شاء أن أنْضمَّ إليهم الآن".

لا يتحدث عن كونه مُسيَّرًا لا مُخيَّرًا إلا للتعبير عن صحة قراراته. فكيف تُعارِض أفعالَه وقد بارك الله تعالى كل خطواته؟!وليرسِّخ في أذهاننا حصول التوفيق والتأييد من الله يضيف: "استخرتُ الله، فانشرح صدري لذلك"؛ فمن يستطيع أن يقنعه بخطأ ما أقدم عليه؟!

- "كان الصحابة يتقاتلون نهارا، وفي الليل يعزم بعضُهم البعض على العشاء".

هكذا صوَّر أحدُ الدعاة في شريط فيديو العلاقة بين الصحابة الكرام أثناء معركة صفِّين التي وقعت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان. يمكن أن تتعاقب الأُخُوَّة والعداوة بتعاقب الليل والنهار! بهذه المفارقة التي نزلت بردا وسلاما على أشياعه شاء أن ينسب للصحابة ما يُبرهن أنهم على حق، فأساء

إليهم من حيث أراد الإنصاف.

- "إنه الإسلام، شوكة في حلق العلمانية".

يبدو أن الفقيه كان يُجَيِّش أتباعه بحماس قوِي جَرَفَه إلى هذا التشبيه المُقزِّز الذي ينطوي على حقد مطمور في ثناياه. وإنيِّ لأتساءل عن مدى سلامة عقل من يعتقد بذلك وهو يقرأ منذ صغره أن الله بعث رسوله برسالة الإسلام رحمة للعالمين. هذا هو التناقض الصارخ الذي كان على الفقيه لا ألا يقع فيه فحسْب، بل أن يدعو مريديه إلى اجتنابه[1].

- "سبحان الله، أَتَت النار على المنزل بكامله ولم يحترق القرآن".

ولِمَ تغُضُّ الطرْفَ يا شيخ عن الحالات الكثيرة التي احترق فيها المصحف مع أمتعة البيت؟! ولِمَ لا تذْكر لنا وقائع حرق المصحف عمْدا من طرف بعض أعداء الإسلام؟

كل المسلمين يعلمون أن الله يحفظ كتابه من التحريف والزيادة والنقصان، فلا داعي لمغالطة الانحياز التأكيدي التي

1قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: إِنيِّ لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً، صحيح مسلم.

تُراهن عليها في إثبات انحفاظ المصحف أي الصيغة الورقية للقرآن، وهي المغالطة المفضوحة كَحِيَل الأطفال الصغار، التي يلجأ إليها طيْفٌ واسع من المسلمين للافتخار بتحقق رؤية منامٍ أو الاغترار باستجابة دعاءٍ.

- "الله هو الذي يرفع الأسعار".

أراد فقيهٌ أن يُقْنع مُشْتَكين من ارتفاع الأسعار فكانت هذه الفتوى العجيبة؛ ودافَع العالِم عن نظريته الاقتصادية بقوله إن المُسَعِّر من أسماء الله، هو الذي يرفع الأسعار وهو الذي ينزلها سبحانه وتعالى؛ بهذه الطريقة تم الاستدلال الدائري وحصلت المصادرة على المطلوب! وما عليهم إلا الصبر والدعاء لتنخفض الأثمان، وما الغلاء إلا نتيجة لكثرة ذنوب الناس. دُمتَ للإسلام ناصرا يا شيخنا!

يتبين من خلال هذه الأمثلة أن تمتُّعَ الخطيب بالسلطة الدينية يسوِّغ له تتبُّعَ استراتيجية توجيهية يستعمل فيها خطابا حجاجيا يستند إلى التأثير على مشاعر المصلين الواقعين تحت نفوذه لإخضاعهم والتلاعب بعقولهم وحملهم على تبني آرائه عِوض إقناعهم بالاستدلال المنطقي رغم أن الإسلام أقوى من أن يثبت

بهكذا طرق وأسمى من إن يُدخل في متاهات التمويه والتعمية. فهذه السلطة الدينية التي تنِمُّ عن استغفال العامة تُبقي الفقيه على مسافة من الناس؛ وتزداد هذه المسافة كلما أمعن في استصغار عقولهم من جهة وبَـوَّءُوه منزلةً أعلى في هرم التَّراتُبية من جهة أخرى.

ويعزز رجلُ الدين احتكارَ هذه السلطة من خلال تبادله مع مشايخ آخرين الثناء وإثبات المقامات والمراتب فيما يبدو للدهماء تواضعا مِمَّن امتطوا صهوة الدين. وهكذا ينجرف البسطاء إلى المصائد كلما شَهِد رجالُ الدين بعضُهم لبعض بأهلية التشيُّخ والإمامة؛ وهذه التزكية المتبادَلة هي بمثابة كلمةِ مرورٍ تمكِّن من تحميل مواعظ الشيوخ على ذاكرة كلِّ مَن استحْمَرُوهم ليسِيروا في ركْبهم معصوبي العينين مثلما يكونون في متابعتهم للملاحم البطولية العجيبة ضِمْن سِيرَ الصالحين وقصص المغازي.

ومن يَطَّلع على الإسرائيليات الواردة في كتب التفسير يجد أن النزعة الغرائبية هي أهم ما يميز الفقيه الذي يتفنن في استهجان عقول الناس؛ خاصة إذا تمتَّع بحِنكة في الحَبكة القصصية التي تشفي غليل جمهور شغوف بسماع الروايات الخرافية المسْهِبة في

وصف الضخامة؛ فتَجِده يُحدِّث الناس عن كائنات حية عملاقة أرجلها على الأرض وقرونها في السماء السابعة وطول أعضائها يُقاس بمسيرة خمسمائة ألف سنة مشْيا على الأقدام، حتى إذا وصل به خيَالُه إلى عرش الرحمان حدد مكانَه ووزْنه وأطيطَه بالدليل والبرهان.

الفصل الرابع عشر:
تَوجُّس الفقهاء من المستجدات العلمية

اعتاد الفقهاء التأكيد على أهمية العِلم في حياة المسلم ورفعة مكانة العلماء في الإسلام. لكن الخطاب الديني السائد، المتخوف من العلوم المادية، جَعَل "العلوم الأخروية" تطغى على العلوم الدنيوية، ولم يسمح بتجانس هذين المجالين رَدحًا من الدهر لدرجة أن صارت كلمة عِلْم في القرآن تقتصر في أذهان الفقهاء على علوم الدين وحدها[1]. وأغلب المشايخ اليوم لا زالوا يلتمسون مَوْئِلا في نهج ابن تيمية الذي كفّر العلماءَ العظام كابن سينا واعتبر الكيمياء أشد تحريمًا من الربا وحرَّم كل العلوم الدنيوية "المفضولة" في حالِ زاحمت العلوم الأخروية "الفاضلة". فهم يستبقون المواجهة دوما، لأن العلوم الحقَّة إذا ارتطمت بالفكر الديني المتحجر تحطم الأيقونات التي صنعها رجاله.

1 سُئل الشيخ ابن العثيمين: ما المقصود بالعلماء في قوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)؟ فأجاب بقوله: المقصود بهم العلماء الذين يُوصِلهم علمُهم إلى خشية الله، وليس المراد بالعلماء من علِموا شيئاً من أسرار الكون، كتاب مجموع فتاوى ورسائل ابن العثيمين.

ولا عجب إذن أن نَجِد مِن بين المنتسبين إلى الإسلام مَن ينفُون قدرة الطب على الكشف عن جنس الجنين، ومن يقْرِنون نظرية التطور بالإلحاد، ومن يشككون في توقعات أحوال الطقس بتضخيم هوامش الخطأ في مقاييس التساقطات وتوزيعها وأوقات تكون الغيوم ومدى انتشارها ليَخْلُصوا إلى كون الأرصاد الجوية ليست عِلما وإنما رجما بالغيب، ودليلهم في ذلك أن حركة السحاب مَوْكولة إلى مَلَك[1] من ملائكة الله. والأغرب أن بعضهم ما برح ينكر كروية الأرض ويحرِّم الفلسفة والمنطق. وبلغ بهم الأمر حدَّ الابتهاج تشفِّيا وشماتة بفشل تجارب علمية غرْبية واعتبار ذلك انتصارا لدين الله، هذا ما حدث في منتصف ثمانينات القرن الماضي حين انفجر مكوك الفضاء الأمريكي تشالَنْجر في السماء، حيث نشرت إحدى المجلات العربية مقالا بعنوان بارز "المتحدي تتحداه الأقدار"، مُنْتَشِية بالخسارة مثلما بدا من آخرين يوم نُسِف بُرجَا مركز التجارة العالمي في نيويورك أو يوم مات المستفيد الأول

1 في مسند أحمد وسنن الترمذي عن ابن عباس قال: أقبلت اليهود إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: ملك من ملائكة الله، مُوكَّل بالسحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا فما الصوت الذي نسمع؟ قال صوته.

من زراعة قلب خنزير.

وبينما تقدِّم نظريةُ التطور خدمات عظيمة في كل معاهد البحث العالمية المختصة بعلم الوراثة وهندسة الجينات وعلم الحفريات والبيولوجيا ما زال رجال الدين عندنا فرحين بفقدان حلقةٍ في إحدى سلاسل التطور الداروينية التي تم استيعابها وتجاوزها منذ عشرات السنين؛ فلَستُ أدري كيف ألتمس العذر لشيوخنا الآن وها هي الدلائل ناصعة أمامهم، يتابعون كيف يتطور فيروس كورونا في صراعه من أجل البقاء إذ يشهدون من حين لآخر ظهور مُتحوِّر جديد انطلاقا من النسخ المتحورة. وبما أن نظرية التطور محايدة إيديولوجيا لكونها تحاول فقط إعطاء تفسير منطقي مقبول للتنوع البيولوجي لَزِم تناولها بأدوات العلوم التجريبية الموضوعية بعيدا عن الخلفيات الإيديولوجية؛ فلا قيمة لاستناد بعض الملحدين على النظرية للترويج للإلحاد من جهة، ولا عذر لمشايخنا في رد فعلهم المتشدد الذي يريد أن يغلق بابا من أبواب العلم ويقف سدا منيعا أمام التطور العلمي من جهة أخرى.

وطبعا، هؤلاء الفقهاء المتشددون الذين يجرُّون وراءهم خطيئة إضلال المسلمين بخرافات فندتْها العلوم اليقينية، ليسوا معزولين

في جزر بعيدة، بل هم يعيشون معنا، ومشكلتهم أنهم سدوا عليهم منافذ التفكير، لا يقرؤون الواقع ويكتفون بالنصوص التراثية؛ وما يعقِّد مشكلتهم أنهم يعتبرون كلَّ ما قيل بصحته من التراث يقينا لا يرقى إليه الشك، وبهذا الشأن يتساءل أحد الشيوخ التراثيين: كيف أترك حديثا صحيحا بدعوى افتقاده الأساس العلمي والمنطقي؟ ويضيف مستغربا: لماذا تشككون بمعطيات العلم الحديث غير الثابتة في المبادئ الدينية القطعية؟ أتريدون تجريد مَرْوِياتنا من قدسيتها؟

هكذا، لا يتحرج هذا الفقيه وأمثاله من جعل الإسلام في صدام مع العِلم، وهُم يدَّعون أنهم حماة الإسلام وحراس العقيدة. يعارضون العلم ويُلغون العقل على الطريقة الوهابية، لا لشيءٍ إلا لأنهما يكشفان أخطاء السلف في تفسير القرآن ويمْحَقان الروايات التراثية الخرافية. ويشهد التاريخ أنه لا مناص لرجال الدين من ترك الجمود على المنقولات والتجاوب مع ما يأتي به العلم من مستجدات؛ فالأمر يتجاوزهم سواء تشددوا وحرَّموا، أو تساهلوا وأحَلّوا، لأن العلم يسير دون توقف ودون خشية الاصطدام بالفكر الديني المتشدد الذي يسعى إلى التسَيُّد وإن تغيرت الأزمان

والبلدان.

ومن تجليات هذا التسيد في ميدان الطب أنْ حَكَم جمهور علماء السلف بِعدَم وجوب التداوي[1] مرَغِّبين في التوكل على الله والصبر على الابتلاء وتكفير الذنوب برفض العلاج، بل إن ترك التداوي فضيلة في بعض المذاهب. وقد وجد أنصار نظرية المؤامرة من المتطرفين الإسلاميين في فضيلة ترك التداوي سنَدا دينيا لرفض التلقيح ضد فيروس كورونا؛ رعاكم الله أصحاب الفضيلة! ومِن خرجات الفقه المتسيِّد بيانُ فقهاء مؤسسة دينية مشهورة حول زرع كلية الخنزير؛ فقد أفتوا، بعد سلسلة من الاجتماعات المكثفة، أنه لا يجوز إلا للضرورة؛ طبعا هذه الفتوى قد تكون موجهة، في إطار اليقظة الفقهية، لمن يوَدُّون زرع كلية خنزير للافتخار بتركيب قطع غيار؛ اللهم بارك حذق شيوخ الإسلام! وقبل ذلك كان الشيخ الشعراوي رحمه الله قد قال في تسجيل مصور إن التبرع بالأعضاء اعتراض على مشيئة الله.

1جاء في مجموع الفتاوى لابن تيمية (564/21): ولسْت أَعْلَمُ سالِفًا أَوْجَبَ التداوي وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضُّلاً وَاخْتِياراً؛ لِما اختار الله ورضي به، وتسليما له.

ولعل كل من يرفض الحديث عن الصراع بين العلم والدين الإسلامي يفرِّق بين الدين والتدين ويُقِر بوجود تناقضات بين بعض المأثورات الدينية والحقائق العلمية، مع الإيمان بتطابق ما في القرآن من آيات مسطورة مع ما في الطبيعة من آيات منظورة. والعائق الذي يُلغي الفارق هو تمسك رجال الدين بموروثات تؤجج صراعهم مع العلم التجريبي ومستجدات العصر، وتجعلهم ينظرون بعين الريبة إلى كل إنجاز علمي يستفز فكرهم، فيتربصون للتصدي له ومصادرته خشية أن يُدخِل مستحدثةً في تفاصيل الحياة، تُخْرجهم عن المألوف الذي وجدوا عليه آباءهم وتهدد القديم بالاندثار، نسأل الله لهم الشفاءَ مِن رُهاب نقد التراث.

كان الوُعّاظ التراثيون ولا يزالون، يمتِّعون مستمعيهم بالأساطير والقصص الخرافية، فهم يشنفون بها آذانهم عند تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية واستحضارهم لبعض الأحاديث النبوية، يرسِّخونها بالمعجزات والكرامات؛ لكن هناك شيخ، يلقبه تلامذته بزينة المفسرين والمحدثين، أكثر غوصا في الغيبيات وتوَغُّلا في الخرافة وأشد تغوُّلا على العلم الحديث. ذلك لأنه يتزاح إلى التفاسير الخرافية التي تثير لهفة الاستماع لدى البسطاء من الناس ولا يلُوك

خطاب أسلمة العلوم والإعجاز العلمي الذي اتخذه بعض الدعاة المعتدلين شعارا لهم.

من حين لآخر يَحِيد محدِّثُنا هذا عن دوره الوعظي ليلَقِّن الناس بعض المسائل العلمية فيما يمكن أن نسميه تهافتَ الفقهاء على العلوم؛ فهو إذا تكلم في العلوم الحقَّة -وكل كلامه تحت مظلة الشرع- كان أبعد ما يكون عن الصواب وأشد ما يكون علة على الإسلام وأقسى ما يكون إحراجا للمسلمين. وقَدَرُ المثقفين والمتخصصين في العلوم التجريبية في بلاد الإسلام التعذر والتذرع بوجود سوء فهم للنص الديني والمبادرة إلى تطويعه ليتماشى مع الحقيقة العلمية أو ردِّه إذا كان يُضَادُّ العقلَ ويصطدم مع العلم؛ فما ذنبهم إن كانت عقولهم مُتيقِّظة ومُتَّقِدة لدرجة شعورهم بحساسية مفرطة إزاء بعض المرويات المخجلة التي تجعل المرء يضرب أَخماسًا لأسداس؟!

والحق الذي لا مِرْيَة فيه أن دلالات النصوص الدينية أخضِعتْ إلى قوالب جمدتْها منذ القرون الثلاثة الأولى للدين الإسلامي حيث قام العقل المسلم في ميدان الفقه بمجهود جبار ثم استراح بل استقال، تاركا مكانه للنقل الذي قام بتمرير التراث دون رقابة

لكي يصوغ واقع القرن الواحد والعشرين. فلا غَرْو أن يأتي صاحبنا بما سُطِّر في كتب الأولين ليُقحم الإسلام في معارك خاسرة ضد العِلم حول مسائل أفرغَ منها تلاميذ المدارس في العالم أجمع. فقد بلغَ من جُرأته أن ساقَ معلومات يتعين معها على الطلبة الجامعيين في شعبة الجيولوجيا أن يضربوا صفحا عن مَراجعهم ويغضوا الطرف عن برنامجهم الدراسي ليستمعوا إلى شروح عن الأرض المُسطَّحة وجَبَل قاف الذي يحيط بها من كل جوانبها ممسكا السماء[1]؛ وعلى طلاب الطب أن يصححوا معلوماتهم عن أقصى مدة لحمل المرأة التي تصل إلى سبع سنوات، وأن يتدربوا على ختان الإناث في ظل حديث الفقيه عن الحكمة من تشريعه الرباني ومزاياه في تهذيب النساء؛ فهذا من الإرث الفقهي الذي لا ينازَع فيه الشيخ وعلى الجميع احترام تَخصُّصِه. بناًء على ذلك، يجدر بطلاب الجامعات هؤلاء أن يستغلوا حالة السيولة الفقهية ويسارعوا إلى الاستفادة من دورات تكوينية عند فقيهنا دام فضله ليخرجهم

1 قاف: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء أخضرت السماء منه، وعليه طرفا السماء والسماء عليه مَقْـــبِـيّة (تفسير القرطبي لسورة قاف). هو اِسْم الْجَبَل الْمُحِيط بِالْأَرْضِ (تفسير الطبري لسورة قاف).

من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، نسأل الله لهم الهداية.

جمَّد السلف الصالح قوالبَ الفقه، فجمَد ما تضمنه من معلومات عن الطبيعة وأورثنا الكثير من الفجوات المعرفية. وهكذا، يصعب إقناع التراثيين بأن القلب ليس هو مركز الإيمان والعقل والأحاسيس؛ وهذا الاعتقاد الخاطئ ترسخ في الأذهان نتيجة الفهم السطحي لبعض الآيات القرآنية ولارتباط القلب بالمشاعر في كل الثقافات القديمة وبسبب تكرار نسْخ أكاذيب على صفحات الويب العربية تُساق كدليل علْمي على كون القلب هو مقرُّ العقل وكأن المخ مجرد حشوة تملأ الجمجمة، بل تجعل من هذا الزعم إعجازا علميا للقرآن الكريم. إنه تعسُّف ما بعده تعسف! وما ذلك إلا انضواء مع الجماعة انحيازا لموقف روَّجَه رجال الدين.

في تدبرنا لكتاب الله يجب ألا نستبعد الدلالات الرمزية لألفاظه؛ فالقلب في القرآن قد يُقصد به الجوهر أو الباطن أو العقل فيكون قلبا رمزيا وليس تلك العضلة التي تضخ الدم؛ والصدر قد

يدل على أعلى مُقَدَّم الجسم أي الرأس[1] كما جاء في معجم لسان العرب لابن منظور. يجب إذن ألا نقف عند الألفاظ إذا أردنا تجاوُزَ الفهم السطحي، فلا يمكن مثلا أن نستوعب قوله تعالى "بلغت القلوب الحناجر" بالاعتماد على المعنى الظاهر. بِذَا أمست الحاجة ملحة إلى تحدي الفهم التقليدي للنصوص الدينية وقبول المجاز بحمل اللفظ على دلالته الملائمة وتأويل الآيات وفق المعطيات العلمية الراهنة. فالقرآن رسالة للعالمين إلى يوم القيامة، كتاب لا تنقضي عجائبه[2]، تدبَّرَه المسلمون في عصر الرسالة حسب معارفهم، ونتدبره نحن في العصر الحالي بما توصلنا إليه من علوم وتقنيات، وهو الكتاب الذي سيجده إنسان الألفية العاشرة أمامه إذا أطال الله عمر البشرية وبلغ التطور العلمي مدى لا يخطر على بال.

باختصار، ما دامت العلوم الحقة تُثْبت أن الدماغ وليس القلب

1 ومقدمة الرأس هي الناصية، وتقَبَّل بعض الشيوخ أن تكون الناصية الواردة في سورة العلق (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) هي الفَصُّ الأمامي للمُخ والمسؤولة عن اتخاذ القرار لإضافة إعجاز علمي جديد من خلال هاتين الآيتين، لكن ما زالوا يجرِّدون المخ من باقي وظائفه (التفكير، الذاكرة، العواطف، الوعي ...) ويسندونها للقلب.

2 من حديث نبوي وارد في سنن الترمذي.

هو مركز العقل[1] ومناط الاختيار واتخاذ القرار لا يمكن استبعاد المعاني الأخرى للقلب المذكور في القرآن. وللتأكد من كون عضو القلب لا يضطلع بتلك الوظائف التي أسندها الفقهاء إليه وجردوا الدماغ منها يكفي الاطلاع على شهادات جراحي القلب وآلاف المستفيدين من عمليات زرع القلب التي تتم على مدار السنة حول العالم؛ فهي متاحة على الويب صورة وصوتا بعدة لغات تثبت بما لا يدع مجالا للشك عدم تسجيل أي تغير في المعتقدات أو الميول العاطفية بعد العملية[2]. وليس يفوتني هنا الإشارة إلى شهادات حية لمن يحمل قلبا صناعيا بدل القلب الطبيعي وقد احتفَظَ بأفكاره التي يعبر عنها ومشاعره التي تظهر على ملامح وجهه. أما العملية التي تمتْ في الولايات المتحدة في يناير 2022 بزرع قلب خنزير لإنسان وأثلجتْ صدور المرضى والأطباء حول العالم فقد أدخلتْ

1في هذه المسألة كان الجاحظ منهجيا في طرحه أفضل من بعض فقهاء القرن الواحد والعشرين، فقد قال: "ولَوْلا أنَّ العقل في الرأس لَمَا ذهب العقل من الضربة تصيبه"، البخلاء.

2 هناك شهادات تبين أن المستفيد من زراعة القلب يحتفظ بكامل قدراته العقلية وكل قناعاته ومشاعره، فهي لا تُطرَح مع القلب المتُخلَّى عنه! أما التغيرات الملاحظة على نفسية المستفيدين من عمليات زرع القلب فناتجة عن تفاؤلهم بعمر جديد وتحسن تغذية الدماغ بالدم واسترجاع نظامهم الغذائي العادي، ولا علاقة لها بشخصية المتبرع.

الغيظ على قلوب المتحجرين من مشايخنا الذين أثاروا الجدل حول حُكم الاستفادة من أعضاء جسم الخنزير ووقعوا في دوامة الحلال والحرام، فأغفلوا الحديث عن انتقال "مشاعر وميولات" الخنزير إلى الإنسان. وهنا أسأل الذين يصدقون شيوخهم في زعمهم انتقال عقل المتبرع وطباعه واعتقاده ومشاعره إلى المستفيد: ماذا سيحمل قلب الخنزير إلى الإنسان المريض الذي تخلى عن قلبه الأصلي؟

وصفوة القول إن تطور عمليات زراعة قلب الخنزير في جسم الإنسان سيُسْعد الملايين من المرضى في العالم؛ وسيأتي في المستقبل القريب أناسٌ بقلوب خنازير يحَدِّثون رجالَ الدين عن إسلامٍ لا يقوم على العنف ومشاعر إنسانية لا تُغذَّى بالكراهية وعقل لا يُعطَّل أمام النقل.

الفصل الخامس عشر:
الرؤية الدينية الضيقة، المثال الأول: فقيه تائه في زمن كورونا

في شهر فبراير من سنة 2020 ألح عليَّ أحد المشايخ في طلب لقائه بعد طول غياب، فظننت أن ثمة مستجَدا يستوجب الحضور العاجل؛ لكن عند الاجتماع أخَذ يُفْرِغ ما لم يصبر على حبسه في صدره: "هل تعلم أن الصينيين الذين نَكَّلوا بالمسلمين الإيغُور وعزلوهم سَلّط عليهم ربُّ العزة جنْدا من جنوده (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ)، فكان الجزاء من جنس العمل: فيروس أدى إلى قتل وعزل الملايين من الكفار، يا له من عقاب! سبحانك ربي، ما أعْدَلك!".

هكذا، في بداية انتشار الوباء لم يكْترث شيخي للإشاعات التي قالت إن سبب المرض انتشار غاز سام في الجو أو بداية تشغيل أجهزة الجيل الخامس من الاتصالات، فقد بدا مقتنعا بأن المرض عقاب إلهي للصين على ما فعلته بالمسلمين. لكن، عندما تهاوى مؤشر تكاثر الفيروس في الصين وعمَّ الوباء كل القارات عدَّل هذا

التفسيرَ حيث ربط الوباء بِتَفَشّي الفاحشة وعدم الالتزام بالدين، فاعتبر الفيروس وخزْاً من الجِن مسيرًّا بأمر ربّه، يصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء، ونفى أن يكُون جسما ينتقل من شخص لآخر، مستدلا بالحديث المنسوب إلى رسول الله "لا عدوى ولا طيرة". لقد غَيرّ رأيه لِئَلاّ يقول إن الذين تَعافَوا في الصين تغلبوا على جنود الله، خرج مِن ورْطته بجعل الفيروس يَنال من كل الناس، عقابا لهم بما كسبت أيديهم: ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رُفع إلا بتوبة؛ مستبعِدا كعادته الأسباب الطبيعية ومتعلِّقا بالتفسيرات الغيبية.

ومع إغلاق المساجد ومنْع الحج شرَع الشيخ في التحذير من مؤامرة صهيونية: مادامت المساجد محصَّنة من الأوبئة ومكّة محروسة بالملائكة فلا مبرر للإغلاق! والأمر لا يعدو أن يكون مدبَّرا من طرف أعداء الإسلام لطمس معالم الدين، ويستدعي استحضار الآية الكريمة (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1].

وأمام ظهور بُؤر قريبة مع تسجيل حالات حرجة وسقوط ضحايا، بدأ الفقيه يتابع إحصائيات الرصد الوبائي مستشعرا خطورة

1سورة التوبة، الآية 32.

الوضع، فَطَوَّر خطابه مع الجائحة وصار يُرَوِّج لوسائله الخاصة في الوقاية والعلاج ضاربا عرض الحائط بكل الطرق التي يوصي بها العاملون في قطاع الصحة؛ كان يستجير بأدعية الصباح والمساء ضد الفيروس اللعين، ويُسبغ الوضوء على المكاره ليحافظ على هالَته النورانية الواقية التي تعفيه من استعمال المُعقِّمات! وأَمَرَ يوما أتْباعه بالصعود إلى أسطح المنازل للدعاء اعتقادا بوجود الله في السماء، ونصحهم بقراءة صحيح البخاري، ذلك لأنه "أجاز كثير من أهل العلم هذا الزمان قراءة صحيح البخاري وختمه لشفاء الأمراض ودفع المصائب وحصول المقاصد وهو الذي يُسْتسقَى بقراءته الغمام"[1]. وكان يقول واثقا: "يزعُم بَعضُ مَنْ ينسبون أنفسَهم إلى العِلْم أنَّ منْع تَفَشي الوباء يقتضي إغلاق المساجد، وزَيَّن لهم بعض الأطباء سَوْأتهم، مُتَناسِين أن بيوت الله في حماية الملائكة ومحصنة بذكر الله وتلاوة القرآن. ولو كَلَّفوا أنفسهم أن يبحثوا عن الشفاء لَوَجَدوه في التضرع إلى الله والصلاة جماعةً في المساجد؛ وبما أن الفقهاء أعلم من الأطباء في هذه الأمور، احذروا أن تنتصروا

1تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الفكر، بيروت، 2003 مقدمة الجزء 1، ص115.

للطب، فلحوم العلماء مسمومة، وسُمِّيتُها شديدة لا ينفع معها تِرْياق الأطباء. عليكم بالصبر واللجوء إلى الله، وسننتصر على فيروس كورونا بحلول رمضان لما رأينا من كون الصوم يقوي المناعة ويقضى على الميكروبات. وفي انتظار ذلك، أوصيكم بِخلْط القرنفل والقرفة بالماء الساخن للوقاية من المرض عن طريق المضمضة والاستنشاق. وإياكم من تبذير المال في تشخيص الأمراض، فلا لزوم للتحاليل والأشعة ما دامت الحبة السوداء دواء لكل داء".

وتمادى الواعظ في غَيِّه حين طفِق يزرع الشك ويُثير الفوضى بالاستخفاف بالإجراءات الاحترازية ورفْض معطيات علم الأوبئة، كما جاء في صفحة مُحِبي الشيخ على الفيسبوك: "إن كورونا مجرد مؤامرة صهيونية الهدف منها إغلاق بيوت الله. وتعطيلُ صلاة الجماعة خشيةَ المرض قرارٌ غير شرعي ينطوي على إديولوجيات فاسدة للمغرضين المتربصين بالإسلام. فحِفْظ الدِّين مقدم على حفظ النفس باعتباره أول الضروريات الخمس. واستنادا إلى قول ابن تيمية "لا يحل إغلاق المساجد عما شُرِعت له" فكل فتاوي إغلاق المساجد باطلة. إنما كورونا مؤامرة يتزعمها المسيح الدجال

الذي يمهد للخروج، وتُرَوِّج لها حناجر الشياطين من بني عِلْمان للسيطرة على البشر والتحكم في مصيرهم بِفرْض لقاح يُضْعف المناعة البدنية بعد أن تأكدوا من إضعاف المناعة الدينية".

وبعد فتْح المساجد رفَض الفقيه الصلاة بالتباعد ونَعَتها بصلاة الشطرنج التي يتخلل الشيطان صفوفها وتبطُل بوجود الفُرُجات. والحق يقال، فرِحَ المسلمون بالعودة إلى المساجد مع احترام الإجراءات الاحترازية وإن كان بعض الأئمة يُصِرون دون أن يَدْرون على معارضة التباعد بترديد "استووا واعتدلوا وتراصوا" قبل تكبيرة الإحرام؛ فأيُّ تراصٍّ مع التباعد؟! أما الكمامة، فيزعم هذا الفقيه أنها فُرضت علينا من طرف من يسميهم زبانية إبليس من العلمانيين، فهو لا يستسيغها خاصة في المسجد لِما نُسِب لرسول الله مِن نهْي عن تغطية الفم في الصلاة؛ لكنه استحسن فرْضَها على النساء حتى بعد الوباء، واعتبرها مقدِّمة لوضع النقاب، جزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء.

الفصل السادس عشر:
الرؤية الدينية الضيقة، المثال الثاني: الزلزال ليس ظاهرة طبيعية!

في كل أنحاء العالم يعرف الصغار والكبار أن الزلزال ظاهرة طبيعية. لكن في المغرب، الزلزال ليس كذلك حسب تصريحات فِراخِ الوهابية، وهي فراخٌ هجينة لم تكتسب بَعدُ كلَّ صفات أجدادها في نَجْد، لكنها تسعى إلى التمكين لتصبح من أساطين الدعوة مع وجود بيئة حاضنة ملائمة.

زلزال المغرب ليس ظاهرة طبيعية بل هو آية من الله؛ هذا ما تُردِّده كل الأبواق السلفية وينشره الذباب الإلكتروني الذي يحُوم حولها. نحن المسلمون نعتبر الزلزال من آيات الله ومن الظواهر الطبيعية أيضا. وبِنُور العقل الذي وهبنا الله نميز مغالطات الذين يصرون دائما على وضع العِلْم في مواجهة الإيمان؛ لا ننْخَدِع بمغالطة القسمة الثنائية الزائفة التي تضع الناس أمام خيارين: الطبيعة أو الله. فما الضير أن ننسب الزلزال إلى الطبيعة مع إيماننا بأن الله هو خالق كل شيء؟ وأيُّ بأس في إسناد فعل الزلزلة إلى

الطبيعة ما دمنا نعتقد أنها تَسِير وِفق قوانين أوْدَعَها الله فيها؟ ألا يقول الله في الكثير من الآيات القرآنية "أنبَتْنا" ناسبًا فِعْل الإنبات إليه جل وعلا، بينما يقول في آية أخرى (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[1] ناسبا الفعلَ إلى الأرض؟!

وأُذكّر الذين يعانون من حساسية مفرطة إزاء كلمة طبيعة أن الأرض جزءٌ من الطبيعة وهم يستعملون عبارة "هزة أرضية"، وأننا بتأكيدنا على كون الزلزال ظاهرة طبيعية نستثني الهزات التي تحدث بفعل تدخل الإنسان، إثر الانفجارات النووية مثلا. ولا يَغرُّني هذا الطرح العقلاني، فما إنْ نُفنِّد فِريةً حتى يُخرجوا أخرى؛ وأكاد أرى وجوه بعض الملتحين تمتعض من جرأتي على فتوى شيخهم العلامة أحمد بن يحيى النجمي التي تقول إن مُجرَّدَ التسمية "كارثة طبيعية" شِرْكٌ بالله.

وهؤلاء الذين يرفضون فاعِلِية الطبيعة هُم مَن ركَبوا على موجات الزلزال ليوبِّخوا الناس على تجاهُل مواعظهم السابقة التي كانت ستنجيهم من عقاب الله حسب زعمهم. فتساءلوا شامِتِين:

1سورة الحج، من الآية 5.

كيف لا تهتز الأرض من تحت أقدامهم وهم يرفضون نصيحة المتُمسِّكين بحبل الله المتين؟! وقالوا إن المعاصي التي ما فتِئوا يحذرون منها أوجبتْ سخط الله، ولولا الذنوب التي كانوا يحذرون منها لَمَا كان لهذا الزلزال أن يقع، وما على الناس إذن إلا الاتِّعاظ بالانصياع لعقيدتهم والسير على خطى أئمتهم الصالحين المصلحين لنيل رضى الله واِتِّقاء غضبه حتى لا يخسف بهم الأرض!

كنتُ أنتظر من كل الفقهاء طمأنة الناس بعد الزلزال، فإذا بأولئك الظلاميين يتحدثون عن تعجيل علامات الساعة بكثرة الضلال والشرك مُسْتَبْطِنين محاربة تديُّن المغاربة القائم على الوسطية والاعتدال؛ وتمنى أحدُهم للمغاربة ما هو أشدّ مِما اعتبره عذابا غير كافٍ ليعتبروا ويُقْلعوا عما نهَاهُم عنه من قبل. ألا يبرر الإرهابُ المُضْمَر في هذا الموقف المقولةَ التي ينسبها البعض إلى نيتشه "رجل الدين لا يمكنه السيطرة عليك إلا إذا استطاع إقناعك بأنك كُتلة متحركة من الخطايا والذنوب والآلام والحطام، لِيسُوقك بعدها كالنعجة إلى حظيرته"؟!

وليس أشَدَّ على المُصاب تحميلُه مسؤولية فاجعة لا ذنب له

فيها. لكن، لم يكْتفِ شيوخ السلفية بهذا التشفي الذي يرفضه الشعب المغربي وعلماؤه ويمْقُته ديننا الحنيف، فقد عبرَّوا عن فرحهم وارتياحهم بكون العلوم العصرية غير قادرة على التنبؤ بالزلازل، وكأنهم بِسَادِيَتهم يتمنّون توقُّفَ البحث العلمي الذي مكَّن الإنسان منذ مدة من التنبؤ بالتساقطات المطرية والثلجية والعمل على تجنُّبِ خطر الأعاصير والفيضانات. أيعتبرون تطوير آليات الاستشعار وسُبل الوقاية من الكوارث الطبيعية تحديا لقدرة الله؟! أَيَرَوْن من خلال الحديث المنسوب إلى رسول الله "لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ"[1] أنه لا فائدة من الحذر والإنذار المبكر؟ فليعْلَم أصحاب هذا الفهم الذي يعرقل نهوض الأمة من كبوتها أن توقُّع تساقط الأمطار وَرَدَ في أهم مراجع السُّنة النبوية. ليقرؤوا حديث رسول الله كما جاء في موطأ الإمام مالك: "إذا نَشَأَتْ بَحْرِيَّةً ثم تَشاءَمَتْ فتِلْكَ عَيْنٌ غُدَيْقَةٌ"[2]، أي إذا نشأتْ سحابةٌ في البحر ثم اتجهتْ نحو الشّام فهي محمَّلة بالمطر الغزير.

1 المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت،1990.

2 الموطأ، مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985.

وهذا الحديث يفتح الباب للحديث عن أهمية إعمال العقل والتفكر في آيات الله الكونية؛ فالزلازل من الظواهر الطبيعية التي عرفتها الأرض قبل ظهور الإنسان بملايين السنين، والآن يرصد العلماءُ حدوثها على كواكب أخرى؛ وأغلبها يحدث يوميا في أماكن لا يعيش فيها الإنسان، وبعضها رغم قوته يصيب غير المسلمين ولا يؤثر فيهم لأنهم استعدوا له بالأبنية المضادة للزلازل، وأحيانا تصيب الزلازلُ بلاد المسلمين دون غيرها؛ كما أن هناك مناطق في العالم مثل وسط القارة الإفريقية خالية من الزلازل، ولا أحد يُرجِع السببَ إلى بُعدها عن المعاصي وإنما إلى بُعدها عن التقاء صفائح الغلاف الصخري وخُلُوِّها من الفوالق الزلزالية. على ضوء هذه المعطيات، لا يمْكن أن نربط جازِمين بين كارثة طبيعية في منطقة معينة وأفعال العباد فيها، مع تصديقنا بما جاء في القرآن من إشارات إلى العقاب الإلهي الذي لحق أقواما سابقين رفضوا دعوات أنبيائهم، ومع إيماننا بضرورة الحفاظ على أمانة الاستخلاف في الأرض وعمارتها على أحسن وجه.

الفصل السابع عشر:
تحتَ النقاب الأسوَد

كان يُحرِّم الذهابَ إلى الشواطئ لِمَا يراه كشْفًا للعورات ونَشْرًا للمنكرات؛ لكن حدثَ ذات يوم أن التقَيتُه صُدْفة في محطة استجمام شاطئية بعيدة. وبعد فشلِ تنكُّره وإبداء عدم تعكُّر صفْوِ رحلته، أَصَرّ على تقديم موعظة بدون عنوان، لمْ أدْرِ ما سِياقها، كل ما أذْكر منها أنه ركز على زيادة الأجر والثواب بكثرة الخُطى وفائدة الاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان وفضْل التأمل في خلق الله برا وبحرا. والحقُّ يقال، صعُبَ عليَّ الاستماع إلى موعظة دينية من شخص بلباس البحر، فأنا لم أكن أتصور وقتها رجلَ دِين يستطيع أن يفرض استعلاءه الإيماني بدون عَبَايَة قصيرة، فهذه من لوازم الاسْتِشْياخ التي رَسَّخَها رجال الدين وتبنّاها العقل الجمعي. ولمّا كان هذا الاعتقاد مُتَجَذِّرا لم أجد مانعا من التنصيص على ألاَّ يَستجِم المصطاف على شاطئ وهو فقيه، أو على الأصح لا يعِظ الواعظ وهو بلباس البحر. يريد بالآراء الفقهية المترسبة في عقله تضييقَ الحريات على الناس، ويذهب خِلسةً إلى الشاطئ للترويح

عن النفس؛ يُنْكِره قولا ويمارسه واقعا، حتى إذا ضُبِط متلبِّسا ألْبسَ الاصطياف لباس الدين لأنه يعلم أنه "على قدْر ادعاء الفضيلة تأتي الفضيحة" كما قال أحد الظرفاء. ولَئِن كان صاحبنا يُضْمر حُب الدنيا ويُظهر في المقابل الورع والزهد فليعْلم أن هذا السلوك أصبح من البديهيات المألوفة في المجتمعات المنافقة.

أما الآن، فقد تغيرت استراتيجية اقتحام أماكن الاصطياف؛ رؤوس مُعمَّمة لا يَقْرَبُها شيطان رُفقة عفيفات شامخات بِنِقابِهن على شاطئ البحر. فما السر وراء تَوَافُدهم المكشوف على فضاءات الاختلاط والتبرج؟ عُدتُ إلى فتاوى شيوخ السلفية، القديمة والحديثة، فوجدتُها تُجْمِع على تحريم الاصطياف على الشواطئ بوجود مخالفات شرعية لا يمكن تجنبها؛ لا يحِل للنساء السباحة قوْلا واحدا، ليس لأن النقاب يخنق الأنفاس والحجاب يلتصق بالجسد عند التَبلُّل بالماء، ولكن لأنه يستحيل على المنقبات تجنب النظر إلى عورات الرجال مثلما يتعذر على ذكورهنَّ غضُّ البصر عن الكاسيات العاريات.

إذن ما سبب تمرد هؤلاء السلفيين والسلفيات على مشايخهم المبَجَّلين؟ أهو التوسع في المحرَّمات الذي يُكدِّر عيش المسلم

فيدفعه إلى العصيان؟ أيدعو الاستمتاع بالطبيعة إلى الانعتاق من رِبقة رجال الدين؟ قد يكمُن هُنا الدافع الحقيقي، لكن ما صرَّح به رجلٌ مُنْفَلِتُ اللحية هو أن انتصار الحق على الباطل يقتضي مزاحمة الخير للشر، وبسط النفوذ على البحر يتطلب مخالطة أهل المعاصي مع الالتزام بالضوابط الشرعية في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى وإن تطَلَّب الأمرُ إقامة الصلاة وسط المصطافين العراة. هذا ما فعله أحد "الملتزمين" قبل أن يجلس مع مجموعة من النساء المُنتقِبات المحجَّبات على الطريقة المَشْرقية. ويتعلق الأمر باللباس الموحَّد الذي يُكسِب المرأة هويتَها السَّلفية، فهو "لوغو" الجماعة، إذ توحيد الزي يعني دائما الانتماء إلى مجموعة مستقلة متميزة.

وإذا كان المغاربة يتقبَّلون الزي التقليدي المغربي الأصيل بِلثامه الذي لا زال رمزا للحياء والوقار في بعض مناطق المغرب، فلإنهم يعْلمون أن ليس وراءه تيار فكري معين، ذلك أن المرأة المغربية بفطرتها السَّوِية تميل إلى الحشمة، ولا داعي أن تُفرَض عليها العِفَّة المُسْتَورَدة مرفوقةً بلَوازِمها وإكْسِسْواراتها. فالهندام السلفي الذي يتم تسويقه بِاسم الشرع لا ينفصل عن الفكر

الوهابي، أي أن مَنْ ترتديه سلفيةُ التفكير ومشرقيةُ الولاء بالضرورة، تَتَمَذْهب وتأْتَمِر بما يُمليه مشايخ قُطْر بعيد يفتقدون التأصيل العلمي القويم؛ فحيثما كان التطرف فثَمَّ آراء فقهية مهرَّبة من الخارج.

أثار فضولَ المصطافين تواجدُ هذه الزُّمْرة المتنافرة مع حيوية الأجواء الشاطئية بما تعْرفه من مهرجانات موسيقية وأنشطة ترفيهية؛ فأخذوا يَسْترِقون النظر إلى النساء المتَّشِحات بالسواد؛ لقد خَطفْنَ الأضواء من مُرتدِيات البِكيني والبرُكيني واْستَأثرْنَ باهتمام مُرتادي الشاطئ رجالا ونساء. لم يَبْدُ عليهن القلق من نظرات الناس، فقد كُنَّ مُنْهَمِكات في التقاط صور السِيلْفي وهُنَّ متحَلِّقات حول طاولة بلاستيكية تُظِلها شمسية لحظةَ الْتِحاق وافدة جديدة، سمينة لدرجة أن انطبق عليها الوصف السائد "خيمة سوداء متنقلة"، وزَّعتْ عليهن عُلَب مُثلَّجات وملاعق صغيرة ثم أخذتْ لها مكانا في مجلس الحريم.

كثُرت ملاحظات وتعليقات المصطافين حول هذا المشهد غير المألوف؛ صاح أحدهم "لقد حَلَّت الغِرْبان السُّود مَحل أسراب النورس، فمتى نستمتع بألوان زاهية تطرد الكآبة وتُضْفي على

المنظر البحري جَمالا وتزيد النفس انشراحا؟"؛ وقال آخر مستغربا وجود الآيس كْريم على مائدة المُنتقِبات "نحن على موعد مع لقطة لم يسبق أن شاهدناها في كل الأشرطة الوثائقية عن طُرُق الاِقْتِيات عند الكائنات الحية". وأضافت فتاة كانت برفقته "احذروا، خلْف كل نقاب لؤلؤة مكنونة، لو كُشف عن الوجه أثناء الأكل، لحصلتْ فتنةٌ عظيمة وأدى التنافس والاقتتال بين الرجال إلى سقوط ضحايا على الشاطئ!". وأخرى لفتَت انتباهَ الجميع إلى التصوير "أليس عندهنَّ من المحَرَّمات؟ وفيمَ يُفيدهنَّ أصلا؟ أيمكنُ تمييز الأشباح؟".

وهكذا تناسلت التعليقات الساخرة وتعززت الآراء بشواهد من الواقع. فهذه تَنقَّبت للظفر بزوج ولَوْ في إطار التعدد؛ وتلك وقعت تحت الضغط، كلما سنحت الفرصة تحررتْ من النقاب وأظهرت مِن أخلاقها ما كان خافيا؛ وأُخْرَيَات تنقبن للتنكُّر طمسًا لِماضٍ أسود، أو للتمويه، فكُنَّ أخطرَ على المجتمع من أسوَء المتبرجات. إنها نماذج تُسيء إلى اللائي يرتدين النقاب مقتنعات بوُجُوبِه شرعا؛ وهؤلاء الملتزمات حقًّا لا يعْلمهن إلا الله تعالى.

وما دام أمرُ اللباس والاصطياف لا يعدو أن يكون حرية فردية ولا يصل إلى درجة فرض الوصاية الدينية وإجبار المخالف على التبعية، فالمرجو "كل واحد يعوم فبحرو"؛ لكن مع الحذر، لأن أغلب المغاربة "الموجة اللي جات تديهم".

الفصل الثامن عشر:
تنمُّر النقاب على التنُّورة

هبَّتْ أعاصير التشدد القادمة من الشرق لتقْتلِع قِيَم التسامح من قلوب المغاربة وتبُثَّ بُذورَ الفتنة المذهبية في مجتمعنا. إلا أن منابر الوهابية تَصِف هذا التقلُّب الجارف بالفتْح المُبِين، ولنكتب عبارة السلفيين بنصِّها: "لمّا نسِي المسلمــون دينَهم، ظنّوا أن السلفيين جَاؤُوا بِدين جديد"؛ أي أن المجتمع الحالي بِعامّته وعُلمائه يفتقد الدين الحق، ومِن شأن السلفية الوافدة أن تغرس العقيدة الصحيحة في قلوب الناس وتأخذهم إلى جادَّة الصواب.

وقد أتى السلفيون مدجَّجين بسلاح التنمُّر، لكن تحت مُسَمَّى "واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وباعتبار أنفسهم الطائفة المنصورة التي لا تتكلم إلا بدليل مَضَوْا يهاجمون بشراسة المنتسبين إلى المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، محاولين احتكار هذا الواجب الديني الذي يجب أن يكون مَنُوطا بالسلطات التي ترعى الشأن الديني في الدولة. وهكذا طفِقَ السلفيون المغاربة يَتَواصَون بعدم السكوت على المُخالِف وردْعه وإرهابه والتضييق

عليه استنادا إلى مرويات تحُثُّ على الغلظة والقسوة مع أهل البِدَع والضَّلال مِثلَ ما قيل عن اليهود والنصارى: "إذا لقِيتُم أحدَهم في طريق فاضطروه إلى أضْيَقه"[1]. ولو لمْ تكُن سلطة القانون فوق رؤوس هؤلاء المتطرفين لكان لَهُمْ مع مخالفيهم مِثل موقف ابن تيمية الذي استحلَّ دمَ مَن يُصِرُّ على الجهر بالنِّية في صلاة الجماعة.

وبِحُجة إخضاع كل الأمور إلى ميزان الشرع ابتغاءً لمرضاة الله تعالى، أخذوا يُقْصُون التيارات الدينية المنافِسة باعتبارها فِرقا ضالة كلها في النار، ويستهدفون المدافعين عن الأمازيغية اعتقادا منهم أن جنس العرب أفضل من كل الأجناس، ويتطاولون على المسؤولين الحكوميين تعبيرا عن سخطهم على استبعاد آرائهم الدينية في تدبير شؤون الدولة، ويسْعون إلى فرض رؤيتهم الضيقة وما يرَوْنه ضوابط شرعية على الفنانين والرياضيين بِلَعِب دور الرقابة على المهرجانات الثقافية والفنية واللقاءات والتعليقات الرياضية، ويتنمرون على التنويريين الذين يرفضون الجمود العقلي ويميلون

1 صحيح مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم.

إلى التخفّف من مرجعية السلف باتهامهم بالزندقة والجرأة على ثوابت الدين.

تتوالى حملات التنمر باسم الدين، ويبقى السلوك العدواني اتجاه المرأة هو أخطرها وأكثرها انتشارا، سواء على أرض الواقع أو على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث يتدخل المتنمرون في خصوصيات المرأة ويعْمدون إلى ترويضها وقهرها حتى تلتزم بمِنْهاجهم، لأنهم يحسَبون قبول الاختلاف سكوتًا عن أهل الضلال يستوجب عقابا إلهِيًا لا يستثني الصالحين. وفي هذا الإطار يرفضون الحريات الفردية ويستخِفّون بحقوق الإنسان وينبذونها وراء ظهورهم، ويتمسكون بعقيدة التنمر لدرجة أنهم يشعرون بامتلاك سلطة موازية لسلطة وزارة الداخلية مثل شرطة الأخلاق في إيران أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي عمّرتْ طويلا في السعودية.

ومنذ أن تصدَّعَت سُلطة دعاة زواج الصغيرة وإرضاع الكبير تصَدَّرَ لِفقْهِ المرأة في العالم الافتراضي من يُتقنون التنمر الالكتروني. في طليعة هؤلاء الذين تَرامَوْا على مواقع التواصل الاجتماعي ليضُخّوا آراءهم الرجعية ويَعْرضوا أعطابهم الأخلاقية

داعيةٌ معروفٌ بتوتُّره يُكثِر الصراخ في خُطَب مُنْفلِتة الزِّمام ولا يستريح إلا بالحَوقَلة والهيْللة، وآخَر يحمل لقب "مول الفوقية" لا يجيد غير تحريض الغوغاء. بعنجهية اليقين يدافعان دِفاعا مستميتا عن النقاب، وبعنترياتهما الصوتية يقومان بهجومات مضادة على التنُّورَة. ما يبدو تزمّتًا وحضًّا على التنمر، يراه الشيْخان ولاءً وبراءً من صميم العقيدة، ولاء للنقاب وبراء من التنورة.

والحق يقال، لا داعي لأساليب المُخاتَلة التي ترتكز على القراءة الماكرة والفهم المُغْرِض للنصوص والأحداث بُغْية اختزال الإسلام في المظهر؛ فإذا كان هناك إخلال بالحياء العام فإن للدولة سلطات تحدده وتعاقب عليه؛ أما رد الفعل المتطرف لرجال الدين إزاء التنورة في الشارع فهو يكشف فشلهم في إقناع الفتيات بارتداء ما يرَوْنه زيًّا شرعيا، ويبيّن أنهم رأوا في تنمر الأطفال على مُرتدِية التنورة فِعْلا يشْفي غليلَهم ويساعد على ردْع وزجْر المتحَرِّرات العَصِيات على سماع أوامرهم. وما تطرُّقهم لحادث تنُّورَة طنجة إلا من باب البحث عن مدخل لمهاجمة المتبرجات ليصِفوهن بالعاهرات وينعتون آباءهن بأشباه الرجال ويرمون إخوانهن بالدياثة. نعم، لقد سوَّلتْ لهم أنفسهم تبرير هتْك عِرض الفتاة

لمجرد ارتدائها تنورة في الشارع العام، ولا شك أنهم كانوا يتلذذون بكشف ما بقي مستورا من جسدها.

وعندما يتحدث الشيوخ عن اللباس المستفز أمام أتباعهم يَسيل لُعاب هؤلاء الذين يسيرون في فَلَكهم، مما يجعلهم يتحمسون للتنمر اللفظي والجسدي. وللكاتب العراقي علي الوردي رحمه الله كلمة جديرة بالذكر هنا هي قولُه: "إنهم يرتكبون ما نهَى الدين عنه، ولكنهم يُصبحون من أشد الناس غَيْرة على الدين حين يَجِدون فيه وسيلةً للاعتداء. ونحن نأسف أن نرى الوُعاظ يستخدمون مثل هؤلاء السَّفَلة في دعايتهم الدينية". وماذا يُتقن الرِّعاع غير السماع والاتباع؟!ولقد بلغت الوقاحة بأحد الدعاة أن قال عن الفتاة ضحية التنمر: "لقد جَنَت على نفسها بَراقِش" ناعتِا الفتاة بالكلبة. يأتي هذا بعد ثلاث سنوات من إخفاق مُلصَقات مجهولة المصدر في دفع الآباء والأمهات في مدينة طنجة إلى فرض "اللباس الشرعي" على بناتهم، وبعد سنة مِن تمَنّي أحد شيوخ سوس أن يزداد الزلزال درجةً لأن ملابس التلميذات لم تتغير رغم التعرض لغضب الله حسب زعمه.

وإذا نظرنا إلى الأمر من الناحية العلمية والعملية، يحق لنا أن نتساءل: ما حاجة الشيوخ إلى معرفة الوضع القانوني للفتاة المتنمَّر عليها، وما شأنهم بالدوافع السيكولوجية والاجتماعية لليافعين الذين تشَرَّبوا مشاعر الحقد والكراهية منذ الصغر؟ ألا يكفي أن يكونوا مُلِمِّين بتخصصهم وقد عَلِموا من فقه الحيض والنفاس ما علِموا؟! لا شك أن قلوبهم استوطنها الرياء، ولمْ يُهذِّبها الإسلام. ألاَ يتذكرون تنمرهم القديم على حَلِيقِي اللِّحى الذين وصفُوهم بالمُخَنَّثين وتنمرهم الجديد على كل من أحبَّ الطبيعة وأخذَ له صورة مع قوس قزح بإضافته إلى مجتمع الميم؟! صِرْنا نفكر ألف مرة قبل استخدام أي شيء يحمل علامة زائد (+) لِئَلاّ نُتَّهم بالتآمر مع الصليبيين. هكذا حال التفكير في زمن التكفير!

وفي الوقت الذي أضْحينا نسمع في السعودية: "العفة والأخلاق لا ترتبط بأمتار القُماش" فاجَأَنا شيخٌ من شيوخ الفجأة يحْمل لقبَ "مول القفطان" ويأكل على كل الموائد بقوله: "قدْرُ الإيمان في القلب كما قدْر الحجاب على الرأس، فكَمَا أن الحجاب ناقص فإن الإيمان ناقص". تسطيحٌ للعقول ما بَعْدَه

تسطيح! ولا نستبعد أن يقول شيخنا تعميما للفائدة على الرجال: "إن طول اللحية يتناسب تناسُبًا اِطِّراديًا مع قوة الإيمان".

وبناءً على ما سبق، فالمتطرفون لا يستنكرون التنورة فقط، هم يرفضون كل لباس لا ينطبق مع النموذج المعياري السلفي ويعتبرونه هجوما على مظاهر الإيمان المتجسدة في لباس المنقَّبات. فالنقاب، وليس الحجاب فقط، هو شعارهم الظاهر الذي يمَكِّن من إبراز انتشارهم واستعراض قوتهم في سعيهم إلى التمكين؛ والدليل على ذلك أنهم في دفاعهم عن النقاب يُساوُون بين نزْع النقاب والعُرْي، وبيْن منْع النقاب ومحاربة الدين، مستعملين مغالطة القسمة الثنائية الزائفة. ولا يذكُر بعضُهم الحجاب إلا في إطار مغالطة المنْحدَر الزَّلِق: "إذا سكتْنا عن منع النقاب اليوم سيُمنَع الحجابُ غدًا"، رغم أن الحجاب منتشر في الثانويات المغربية منذ ما يزيد عن أربعين سنة دون اعتراض.

والواضح أن على رأس الوصفة الفقهية التي أُسِّستْ عليها حملة النِّقابيين (نسبة إلى النقاب) توجَد نصوص تشجع على التنمر منسوبة إلى رسول الله، لذلك يسَمُّون الخطيب الأكثر تنمرا بأسَد السُّنة، ولا فرْق يُذْكر بين التشبه بالنمر والتشبه بالأسد. وقد

اسْتَأسدوا وتنَّمروا كثيرا، أقاموا الدنيا ولم يُقعِدوها، أُصيبوا بذُعْر ثم سُعار بمجرد أن مُنِعت تلميذة من ارتداء النقاب داخل ثانوية تأهيلية عِلما أن المؤسسة التعليمية من الأماكن التي يتحتَّم فيها الإفصاح عن الهوية بإظهار الوجه. فالنقاب يساعد على التمويه والتنكر، ويستحيل معه ضبطُ غياب التلميذات ورقابة الامتحانات إذا كان في القسم عددٌ كبير من المُنَقَّبات حيث يمكن أن تتغيَّب تلميذةٌ وتحْضُر عِوَضها فتاةٌ أخرى لا علاقة لها بالفصل الدراسي، وعند تسجيل الغياب تُدرَج المتغيبةُ ضِمن الحاضرين بينما هي خارج المؤسسة تَسْتمتع بأحلى لحظاتها تاركةً طاولةً نقشتْ عليها "نقابي عفتي". هذا دون الحديث عن دور تعابير الوجه في التواصل خلال العملية التعليمية التعلُّمية.

ومن جانب آخر، تجاوزت انتقادات الإكليروس السلفي مسألة اللباس عندما انطلق يحارب طواحين الهواء، يتهجم بعصبية طائشة على تخصُّص التربويين برفض إجلاس تلميذة إلى جانب تلميذ على طاولة الفصل وبالاعتراض على إدراج أسطورة إغريقية عن تعدد الآلهة في البرنامج الدراسي.

إن التنمر باسم الدين الذي كانت تمارسه الكنيسة في القرون الوسطى وحُورِب من طرف علماء التنوير هو ما يمارَس الآن من طرف دعاة الإسلام الذين يريدون أن نعيش في فترة أكثر ظلامية. وإلى حين ينْظرون إلى الواقع بتعقل وتفهم ندعوهم إلى امتثال قوله تعالى (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[1] وقوله سبحانه (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)[2]. أما إذا أصَرّوا على نسْخ آيات الله بروايات تُكرِّس الكراهية وتُأسِّس لإلحاق الأذى بالغير، فسلام على قيَم التعايش في بلاد المسلمين.

1 سورة النحل، من الآية 125.

2 سورة هود، الآية 118.

الفصل التاسع عشر:
التهافت والمراهقة الفقهية، مثال: موقف المحافِظين إزاء تعديل مدونة الأسرة

بعض الدعاة والوُعّاظ عندنا، بعد أن لعب بعقولهم أئمة الوهابية، صاروا ينْساقون مع كل رأي يُهِين المرأة ويجعلها ترْزح تحتَ وطأة تَشدُّدِهم. فهُم يَجدُون في بعض الأحاديث الموضوعة على لسان الشرع بابا يدخلون منه إلى تفضيل الذكر على الأنثى[1] واحتقار المرأة، مع أنهم يعتزّون بتكريم الإسلام للمرأة واعتبارِ

1 التفضيل يطال البول أيضا حسب معلومات تخفى على الأطباء المتخصصين في المسالك البولية؛ جاء في موقع إسلام ويب "يكفي في تطهير بول الغلام الذي لم يطعم الطعام النضح ولا بد في بول الجارية من الغسل، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بغلام لم يأكل الطعام فأجلسه في حجره فبال على ثوبه فدعا بماءٍ فنضحه ولم يغسله)، وقال صلى الله عليه وسلم: "يغسل من بول الجارية، ويرش من بول الغلام" رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي السمح رضي الله عنه. وذكر العلماء في توجيه التخفيف بالنسبة لتطهير بول الغلام ووجوب الغسل في بول الجارية عدة توجيهات: أحدها أن بول الغلام لا ينزل في مكان واحد بل ينزل متفرقاً هاهنا وهاهنا فيشق غسل ما أصابه منه كله بخلاف بول الجارية. الثاني: كثرة حمل الرجال والنساء للغلام لأن تعلق النفوس به أكثر من تعلقها بالجارية فتعم البلوى ببوله فيشق غسله. الثالث: أن بول الأنثى أخبث وأنتن من بول الذكر وسبب ذلك حرارة الذكر ورطوبة الأنثى فالحرارة تخفف من نتن البول".

النِّساء شقائِق الرِجال.

في تخَبُّطهم جرَّاء تناقضاتهم الداخلية أثْنَوا على آراء فما تبَنَّوها، وأسْدَوْا نصائح فما عملوا بها؛ تارةً يدافعون عن إنسانية المرأة وتارة يُحِيلون إلى موروث روائي يستعْبِدها. فهُمْ لا يختلفون عن أي رجلِ دين يؤكد على إعلاء مكانة المرأة في الإسلام وفي نفس الوقت يتمسك بالحديث "لا يُفلح قومٌ ولّوا أمْرَهم امرأة"[1] الذي وُظِّف أول ما وُظف ضد عائشة رضي الله عنها في معركة الجمل؛ أو يُشِيد بأمر الإسلام بحُسن معاشرة الزوجة ويذكِّرنا بحديث وَردَ على لسان رُواة فوق مستوى الشبهات "عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ فَإِنَّهُ أَدَبٌ لَهُمْ"[2]؛ أو يصرِّح بأن الإسلام اعتنى بالمرأة في كل أعمارها وجوانب شخصيتها والدليل عنده أنه رغَّب في الزواج منها والتمتع بها وهي صَبِية؛ بل لا ينسى أن يقول إن الإسلام كرّم المرأة حتى بعد موتها ولا أَدَلّ على ذلك من جواز مضاجعة الوداع! وأكثر من هذا، ينهى عن تزويج الفتيات كُرهاً ويأتي بقول الإمام البخاري في صحيحه "وقال بعض الناس إن لم

1 صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب كتاب النبي (ص) إلى كسرى وقيصر.

2 أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1447).

تُستأذن البِكْر ولم تُزوَّج فاحتال رجُلٌ فأقام شاهدَيْ زُور أنه تزوَّجها برضاها فأثبت القاضي نكاحها والزوج يعلم أن الشهادة باطلة فلا بأس أن يَطَأَها وهو تزويج صحيح"[1]؛ أو يقول في بداية موعظته جاء الإسلام ليقضي على الرِّق، وفي آخرها يتمسك بِكوْن سَبْي النساء يجب أن يستمر[2].

وإذا نُعِت الشيوخُ التراثيون بمُعاداة المرأة، فلأنهم لا ينظرون إليها من خلال شمُولية شريعة الإسلام وعالَمِيّتها، ويتمسَّكون بتبنِّي آراء دون أفق تجديدي وبإنزال أحكام لا تواكب مقتضيات العصر. فبناءً على الموروث الفقهي الذكوري لا يُعطى للمرأة الحق في اختيار الاسم لمولودها، ولا يَعترِف لها الفقيهُ بالوِلاية على أبنائها حتى وإن كانت على رأس ولاية الجهة التي يسكُن فيها، بل ويعتبرها ناقصةَ عقْل وإن علّمتْه القراءة والكتابة وأشرفتْ على تربيته وتكوينه.

1 كتاب الحيلة، باب النكاح.

2 قال الشيخ صالح الفوزان عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية: "إن الاسلام لم يحرِّم سبْي النساء ومَن ينادي بتحريم السبي هو جاهل وملحد".

وبينما يدافع الحداثيون بكل أطيافهم عن تصوُّراتهم بخصوص تعديل مدونة الأسرة مستحْضِرين مقاصد الشريعة والاتفاقيات الدولية والمعطيات العلمية والميدانية، لا يلبث جُل المحافظين الرافضين للتعديلات المقترحة أن يستقْوُوا بنصوص دينية غالبا ما يُجَرِّدونها من سياقها، ويَستعملوا أساليب تضليلية، ويُؤَجِّجوا مشاعر الناس بتصوير الوضع على أنه مواجهة بين علمانيين يُحْكِمون قبضتهم على مفاصل الدولة ومسْلِمين قابضِين على الجمر وسائِرين على المحجة البيضاء، حيث يضعون العَوَام في مأزق الثنائية، أمامَ خيارين لا ثالث لهما: إما الأخذ بآراء شيوخ التطرف على أساس أن مُنطَلَقهم هو التمسك بشرع الله، وإما مسايرة مَن يروْنهم ينفِّذون مخططات أجنبية تسعى إلى تفكيك الأسرة المسلمة.

ونستعرض الآن أغلب الأساليب الحاضرة في خطابات المراهَقة الفقهية التي تتسم بالبلطجة وفي الخُطَب المِنْبرية المتهافِتة التي لم تكْتَفِ بذِكر إصلاح المدونة هَمْزًا ولَمْزًا وساندت معسكر المتطرفين الذين يعتبرون مدونة الأسرة آخر حصن للدفاع عن الإسلام.

1. **يتلاعب الشيوخ بعقول الناس عن طريق تزوير المعطيات والأرقام أو إعطائها بشكل مبتور.**

يقول المتكلمون باسم الدين إن تعدد الزوجات يؤيده الارتفاعُ الكبير لنسبة الإناث مقارنة بالذكور. لكن الإحصائيات تكذّبهم، فعدد الرجال يساوي تقريبا عدد النساء في المُجتمعات عامة؛ في العالم هناك 101 رجل لكل 100 امرأة (إحصائيات 2021، الأمم المتحدة)؛ في بلد الشيخ ابن باز الذي يعتبِر تعديدَ الزوجات هو الأصل والإفرادَ استثناءً جاءت إحصائيات سنة 2022 بنسبة 50.20% للذكور و49.80% للإناث.

تعدُّد الزوجات في القرآن له علاقة بالإقساط في اليتامى. فالآية القرآنية الوحيدة التي تبيح التعدد هي: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا)[1]. لكن الفقهاء المغالِطين يبتُرون الجزء الأول من الآية "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ" الذي يُعتبَر شرطا لتعديد الزوجات وهو وجود يتامى يحتاجون إلى المعاملة بالقسط، ثم يحذفون

1سورة النساء، الآية 3.

حرف الفاء أو يبدلونه واوا في جملة جواب الشرط"(ف)انكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...". وهكذا يتجاهلون وجود الأمهات الأرامل مع أولادهن اليتامى ولا يرَون في الآية إلا الزواج المتعدد، فيجعلونه هو الأصل العام في الشرع والاكتفاء بزوجة واحدة استثناء. وبغياب الدليل القطعي من القرآن على إطلاق تعديد الزوجات يلجؤون إلى مغالطة الاحتكام إلى الجهل فيتحَدَّون الحداثيين أن يأتوهم بدليل من القرآن يمنع التعدد!

وقال أحد المُحاضِرين الرافضين لتجريم الزواج قبل سِن الثامن عشر إن السن الأدنى للزواج في إسبانيا هو 14 سنة، وفي الإكوادور 12 سنة، وهو يدعو متابِعيه مِنَ الطلبة إلى البحث والقراءة؛ لِحُسن حظه كانوا كُسالى إذْ أن دقيقةً واحدةً من البحث في المواقع الالكترونية الرسمية كافية لكشْفِ تزييفه للأرقام.

وتساءَل أحد مشايخنا الأفاضل مستنكِرا "أَيتمُّ بلوغ الرشد عند سن 18 بالضغط على الزر؟!"، أيْ كما يُقْبَل سن 18 يجب قبول سن أقل من ذلك بأسابيع وشهور وسنوات. ألَنْ يأتينا هذا الشيخ بنفس العذر حتى وإن حُدد سن الزواج في تسع سنوات مثلا؟ ألا يدري أن في كل بلاد العالم يحدِّد القانونُ فئات عُمُرية ومجالات

زمنية يتم احترامها باليوم والساعة؟

واعتمد آخرون على مقارنة مبتورة بين المغرب وفرنسا من أجل التهويل وتحذير المغاربة مما ينتظرهم إنْ عُدِّلت مدونة الأسرة بما لا يتماشى مع مواقفهم المتهافتة. فأعْطَوا أرقاما عن الأبناء الذين يُولَدون خارج إطار الزواج لكن مع إخفاء النِسْبة الكبيرة لاعتراف الآباء بنَسَب هؤلاء الأبناء في فرنسا، حيث يضمن لهم القانون المدني التمتع بكافة حقوقهم.

ومن التوظيفات التضليلية للأرقام أيضا أنْ قال أحد الشيوخ "إن في الإسلام ترِث الأنثى ما يفوق أو يعادل ما يرثه الرجل في أكثر من 30 حالة، وفي أربع حالات فقط يرث الذكر أكثر من الأنثى". لكن الشيخ، الذي وضع حالات نادرة مقابل حالات شائعة، لم يذْكر لنا النِّسب المئوية التي تمثِّلها هذه الحالات على أرض الواقع. هذه الأرقام المُخادِعة التي أراد بها التودُّد إلى النسويات قد تُغضب المجتمع الذكوري "Red pill"، فهل سيُخمِد احتجاجه باللجوء من جديد إلى السفسطة أم سيَعْرض الحقائق كما هي ويدافع عن الإسلام في شموليته مستحضرا السياقات التاريخية والاجتماعية؟

2. **يَعْقِد المحافظون مقارنات لا تستقيم حين يُقحِمون أنفسَهم في أمور غير مؤهلين للخوض فيها.**

غالبا ما يربطون أمورا لا تَلازُمَ بينها، ويخلطون بين مدونة الأسرة والقانون الجنائي. وهم في ذلك يتبعون عدة مغالطات وافتراءات؛ تكفي واحدة منها لاستبعاد آرائهم من الناحية الأخلاقية قبل العلمية. مِن نماذجها هذه التصريحاتُ المقتبسة من خُطَبهم:

- كيف ترفضون تزويج الطفلة وتسمحون لها بالعلاقات الرضائية؟
- تريدون المساواة بين الذكر والأنثى، إذن ساوُوا بين عَدد السجناء وعدد السجينات!
- هل رأيتم رجلا رفع دعوى ضد زوجته وأدخلها السجن لأنها لم تنفق؟
- يطالبون بتغيير الأحكام الفقهية بحجة أنها قديمة والواقع تغيَّر، فالشمس والقمر أيضا قديمان هل نسعى إلى إزالتهما؟!
- لماذا يعدِّل المسلمون مدونة الأسرة الخاصة بهم ولا يقوم اليهود المغاربة بتعديل قواعد الأحوال الشخصية العِبْرية؟

- تعديل المدونة يعني القبول بالمثلية وتغيير الجنس والعلاقات الرضائية.
- هدف العلمانيين ليس إصلاح المدونة بل تصحيح القرآن.

3. التناقضات تَسِم تدخلات الناطقين باسم الدين.

يفقد الخطاب الدعوي مصداقيته عندما يستسيغ الداعيةُ موْقفَين متعارضَين أو عندما تتناقض آراء الشيوخ "المُوَقِّعين عن رب العالمين". ويُعَد غياب المنطق وعدم إعمال العقل من أهم أسباب الوقوع في التناقض، وهذه بعض تناقضاتهم حول الأسرة:

- يُقر المحافظون بارتفاع نسبة الطلاق والعزوف عن الزواج، ومع ذلك يستاؤون من ورش إصلاح المدونة لمعالجة المشاكل المطروحة.
- يجْزم الشيوخ بإن الغرب يتآمر على الأسْرة المسلمة لأنها متمسكة بالإسلام، لكن في سياق آخر يُرجعون تَخلُّفنا إلى بُعدنا عن دين الله.
- يقول التيار المحافظ إن حماية العلاقات الرضائية ستؤدي إلى اختلاط الأنساب؛ إلا أنه، أمام هذا التخوف المشروع، يرفض

الخبرة الجينية في إثبات النسب وتحديد المسؤوليات.

- جاء على لسان خطيب جمعة لا يفقه شيئا في القانون ويُحرِّم الكلام في الدين على غير المتخصصين فيه "إن تغيير الحضانة والولاية سيطرح مشاكل قانونية يجهلها العلمانيون والنسويات" رغم أن أغلبهم حقوقيون.
- أحد الدعاة، بعد أن قضى سنوات وهو يحرّم ويُحِل في شؤون الأسرة، نزل عليه التواضع دفعة واحدة فقال إنه مجردُ طالبِ علمٍ ليس إلا.
- المتعصبون للموروث الفقهي تارة يقولون إن الزواج لِمَن استطاع الباءة، وتارة يقولون إن الزواج يجلب الرزق والغنى.

4. **يتم ترهيب الناس بالتركيز على تحريك المشاعر واستبعاد العقل.**

في الكثير من الأحيان يرفع الخطيب أو الداعية فَزَّاعَات في وجوه المتلَقِّين المُهيَّئِين للاقتناع بالعاطفة؛ ومما يزيد الرعبَ في النفوس الصراخُ بوجهٍ عَبُوس. ويتم التخويف بترديد مثل هذه الأقوال المقتبَسة من خطب الجمعة وغيرها من المواعظ:

- يريدون سَن قوانين تحوِّل الأسرةَ إلى مزبلة تَرْتع فيها الخنازير.

- التعديلات المقترحة تنفيذٌ لمخطط ماسوني صهيوني.
- المشروع الإصلاحي تطبيعٌ مع كل أنواع الفواحش.
- تغيير مدونة الأسرة على أهواء العلمانيين سيؤدي إلى عزوف الشباب عن الزواج الموَثَّق وإلى انتشار الزواج العرفي.
- إذا سقطت الولاية عن الرجل فُتِح بابُ الدمار والفساد.
- بِسبب وجود هؤلاء (العلمانيين) وأصواتِهم تحبِس السماء قطْرَها وتتحرك الأرض بزِلْزالها وتَغلى المعيشة.
- ديننا يحارَب، هناك أناس يقودون البلد نحو الحرب الأهلية والخراب.

5. الشخصنة من أهم المغالطات التي يوظفها المتطرفون.

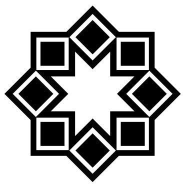
أحيانا يعجز الشيوخ عن صياغة حُجَج دامغة حتى وإن كانت أصولهم صحيحة. يُفاقِم هذا العجزُ جمودَ أطروحاتهم وضُعفَ قوَّتِهم الاقتراحية، فيلجؤون إلى استمالة مخاطَبيهم بمدح أنفسهم وقدح مخالِفيهم. وهكذا ينعتون أنفسهم بالقائمين على حدود الله، أما المطالبون بتحديث مدونة الأسرة فعلمانيون ملحدون يتلقَّوْن المكافآت من الخارج، والنساء المناضلات نسويات ماركْسِيات؛

بل مِن أتباعهم مَن يتطاول على شرَفِهن بقوله إنهُنَّ إما أمهات عازبات أو مطلَّقات دَمِيمات.

وتمتد هذه الشخصنة إلى كل المجتمع حيث يقسمونه إلى فئتين باعتماد الثنائيات الضدية: شعب مسْلم ضد شرذمة ملحدة، هؤلاء أهل الهُدى الذين يحبون الفضيلة وأولئك أهل الضلال الذين ينشرون الرذيلة. ويُكرِّسون هذا التقسيم بالتخنْدُق واحتكار الدين والإقصاء ورسم الخطوط الحمراء. يتجلى ذلك من خلال تداول الشيوخ المتشددين ومُريديهم للشعارات والمزايدات التالية:

- ما تْقِيسشْ عائلتي.
- ديني خط أحمر.
- أنا كمسلم أرفض تعديل مدونة الأسرة.
- هناك التيار الإسلامي الوطني ... وهناك التيار المتأثر بالمرجعية الغربية.
- إلى أين سيصل الأمر مع هؤلاء القوم؟
- من يريد مدونة حداثية عليه أن يذهب إلى الغرب.

وفي الأخير نرى أنه من الجميل أن يستشهد المحافظون بكلام جلالة الملك "لن أحل ما حرم الله ولن أحرم ما أحل الله"، لكن الأجمل أن يستحضروا أيضا قول جلالته "إن التمسك بالمقدس لا يعني الانغلاق أو التحجر، مثلما أن الأخذ بالحداثة لا يعني الاستلاب أو الاغتراب. وبالنظر للعلاقة، التي ينبغي أن تربط بين المقدس والحداثة، فإن المقدس بـدون تفاعله مع الحداثة، يبقى كالجسد المحنط. كما أن الحداثة بدون قيامها على المقدس تظل عديمة الروح مما يجعل منهما مفهومين متكاملين، غير متناقضين". وهذه رسالةٌ تعني تيّارَي المحافظين والحداثيين، صقورا وحمائم. سنسْعَد لأي توافق يمتص الاصطدامات الإيديولوجية لتحقيق مصلحة الأسرة المغربية؛ فَلِما لا نتَمنّاها مدونةً حداثية على سُنة الله ورسوله؟!



الفصل العشرون:
الكرة في ملعب الفقهاء

أمام انتشار كرة القدم وشغفِ شعوب الدول الإسلامية بها لم يَعُد شيوخ التطرف قادرين على الإعلان صراحة عن تحريمها كما فَعل أئمتُهم مِن قبل. لكنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي بحجة عموم البلوى واتساع الخرْق على الراتق، فأخذوا يسلكون طرقا ملتوية وتكتيكات مراوِغة للترويج لأطروحاتهم واستمالة الناس إلى آرائهم الشاردة. تفتَّقَت أذهانهم عن أفكار شيطانية تحْمل الناس على الإصغاء لأئمة الضلال والانصياع لدعوتهم؛ وما أكثر الأبواق المخادعة التي تضادُّ الرأي العام السائد كأهداف تسجَّل ضد المرمى وعكس مجرى اللعب! وما أشدَّها على المواهب الشابة حين تجرُّها إلى الخلف وتبعدها عن مِنَصات التتويج!

أثناء إقامة كأس العالم بقطَر أخذ دعاة الرجعية يُشَنعون على كل من يشاهد المباريات على الشاشات أو يسافر ليتابعها على الملاعب مستعمِلين في ذلك قياسات خاطئة واستدلالات مُموِّهة. والمثير للاهتمام في هذا الصدد أن افتراءات الشيوخ كانت تنْبَني

خاصة على مغالطة القسمة الثنائية الزائفة، منها قولهم: "ذهب الناس إلى قَطَر لمشاهدة مباريات المونديال ولم يذهبوا إلى مكة لحج بيت الله الحرام"؛ وكأن الأمْر يتعلق برِحْلتين لهما نفس التوقيت والشروط والدوافع؛ وأكثر من ذلك، كانوا يُصِرون على وضع المقهى في مواجهة المسجد مُردِّدين: "لقد جلسوا في المقهى لمتابعة كرة القدم ولم يحضروا صلاة الجماعة في المسجد"، على اعتبار أن المساجد تكون مملوءة عن آخرها خارج أوقات المونديال! بل منهم من لجأ إلى التكفير المقَنَّع عندما قال بشأنهم: "واش دابا هادو مسلمين؟!".

وِفق هذه المغالطة دائما، فأنت إن لم تكن معهم ضد الكرة فلست مثلهم في تقربهم إلى الله؛ وهكذا قالوا بنِيَّة التضليل الفقهي: "خرجَ المفْتونون بكرة القدم إلى الشوارع فرَحا بفوز المنتخب ولم يخرجوا لصلاة الاستسقاء". ولم يكْتفوا بذلك في حربهم على الكرة وعُشَّاقها، فبعْد أن وَصف أحدُ فرسان الدعوة اللاعبين والمتفرجين بالحَمْقَى أقحمَ مغالطة التوسل بالعاطفة لتبشيع الاحتفال بالفوز إذ لَم يَرَ في خروج الجماهير إلى الشارع إلا عرقلة لمرور سيارات الإسعاف. ومما يؤخَذ أيضا على فقهائنا

السُفِسْطائيين قولهم: "تَجد الشاب يحفظ أسماء اللاعبين، ولو سألتَه عن اسم صحابي ما عَرَفَه"؛ وهُمْ بذلك يتصورون ذاكرة الإنسان مكوَّنة من خانات لا تَسَع إلا فئةً واحدة من الأسماء، سُرْعان ما تمتلئ وترفض المزيد. وتساءل بعضُ من يتقنون خلط الأوراق بتوظيف القياس الوهمي: "لماذا لا يُخصَّص استقبال كبير للفائزين بمسابقة تجويد القرآن على غرار الاحتفال بلاعبي كرة القدم؟"؛ وما هذه إلا محاولة مكشوفة لِجرِّ الجمهور إلى حصر الأمور في مقارنة ساخرة بين الجلدة المنفوخة والمصحف الشريف.

أما في كأس العالم للسيدات فقد ارتفعت أصوات التيارات المغردة خارج السرب إلى أقصى مدى، خاصة تلك التي تكرس هيمنة الرجل وتهميش المرأة. ومن الجدير بالذكر هنا أن شيوخ التطرف يرَوْن أن كأس العالم مَحْفل شيطاني تقف وراءه الماسونية والصهيونية العالمية، وأن المرأة -صوتا وصورة- هي السبب الأساسي وراء كل فتنة عظيمة؛ فكيف بهما إذْ يجتمعان في مونديال السيدات؟!

فلا عجب إذن أن يقول أحد الفقهاء الذين يمُيِّعون الدين

بتسطير التقسيم الجنْدَري في العقول "مَن بارَكَ لِفوز منتخب النساء فقد رضِي أن يَعصيَ الله". هنا لمْ ينصَب النهيُ فقط على لعب كرة القدم النسائية أو مشاهدة مبارياتها، فهذا الأمر مفروغ منه عند أذناب الوهابية منذ أن حرَّمت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية لعبة كرة القدم بمُوَاصَفاتها التي لا تنْفكُّ عنها؛ ولكن عند الشيخ الذي تبرع علينا بهذه الفتوى مجرَّد تهنئة الفريق بالفوز يُعتبر رِضى بالمعصية، مع العلم أن الذي يرضى بمعصيته شَرٌّ من العاصي. هذه الفتوى فتحت المجال لمواصلة زرع الفتنة بين الناس، حيث أعلن أحد المشايخ الاحتفالَ بإقصاء المنتخب المغربي للنساء. طبعا، هلَّل الأتباعُ لموقف شيخهم وفرِحوا بإقصاء لبؤات الأطلس على صفحاتهم المعزولة في العالم الافتراضي، لكن على أرض الواقع لَمْ نشاهد حشودا من النساء والرجال ولم نسمع هتافات الصغار والكبار؛ فالولاء لشيوخ التطرف لا يمْكن أن يقارَن بشعور الانتماء للوطن، وعقيدة الوسطية والاعتدال أكبر مِن أن يجْرفَها تيار التشدد.

واستعمل آخرون مغالطة المنحدَر الزلق عندما اعتبروا متابعة النساء للمباريات في المقاهي قلة حياء تجرُّ حَتْمًا إلى ما لا تُحمد

عقباه، وكأن أوضاعهن في أماكن أخرى كالحافلات والسويقات أفضل حالا. وبعض الشيوخ، لِما هُمْ عليه من الحَنَق على حريات المغاربة، لم ينطفئ شغبهم برؤية الحجاب والسجود على رقعة الملعب، إذ كثُرَ لغطهم حول شروطهما وضوابطهما الشرعية بإغراق الساحة الدعوية المغربية بالفتاوى المهربة من الخارج التي لا تراعي مقاصد الشريعة ولا تقِيم وزنا لتَديُّن المغاربة.

صراحة، أعجب لهؤلاء الذين لا يَجدون في خريطتهم الفقهية مكانا للمستطيل الأخضر، حيث تُزرع الروحُ الرياضية المؤلِّفة بين الشعوب وتتجلى الروح القتالية النابعة من حب الوطن. ولا أدري لِمَ يُكنِون كل هذا الكُرْه للساحرة المستديرة، فالذي يطمَئن إلى هذه الفقهيات أشبه بمن يأمَن مكْرَ الكرة في مربع العمليات! ومن أغرب الفقهيات الواردة في هذا الباب ما تضَمَّنه كتاب "حقيقة كرة القدم" من محاذير اللعبة ومحظوراتها مثل سفر المسلم إلى بلاد الكفر، وتعطيل الجهاد، وترويع اللاعب الخصم بالتسديدات القوية.

كان الصحابة رضي الله عنهم يتجنبون سؤال رسول الله عن الأشياء التي يسكت عنها. أما الآن، فإن الفقهاء الذين يمتلكون مهارات فردية في اللعب بالعقول يرحبون بكثرة السؤال، ربما

لكسْب المزيد من المتابعين والحصول على أجر عظيم! وبخلاف هؤلاء الخُنْفُشاريين الذين يتكلمون في كل شيء بالباطل هناك العلماء الحقيقيون، الذين يتَوَرَّعون عن إقحام الدين في كل صغيرة وكبيرة، ولا يتكلمون في سفاسف الأمور، ويعتقدون أن الأصل في الأشياء الإباحة. هُم أهل الحق الذين لا يتواطؤون على إشاعة الأباطيل؛ لكن بسُكُوتهم يتَوهَّم أهل الباطل وأشياعُهم أنهم على حق. وإذا بقيت الأمور على هذا المنوال، سيأتي عصرٌ يتحدث فيه الناس عن إجماع الفقهاء على ما نراه اليوم آراء متهافتة؛ هذا ما حدث في الماضي وسَمَّوه الإجماع السكوتي. الكرة الآن في ملعب الفقهاء؛ فتسلُّطُ تجار الدين الذين انسلخوا عن الدعوة إلى الله وانخرطوا في التنمر على اللاعبات واللاعبين وجماهيرهم قد يضع مستقبل الرياضة في كف عفريت.

خاتمة

لقد خلق شيوخ التطرف جوّا محموما من الصراعات المذهبية حيث فشا إغراق الدين بالخلافات الفقهية وتنامى تهريب الفتاوى المتشددة. فالمتشددون يقتربون من المذاهب الأخرى ويَقتحمون ساحاتها لا للتفاهم والتعايش ولكن للاحتكاك بُغية المواجهة وافتعال المشاكل وإشعال المعارك.

وهذا الخطاب الديني الذي يسعى إلى التسيُّد والحرص على الغلبة يلجأ إلى المغالطات ليتلاعب بالعقول، الشيء الذي يُقوِّض مصداقية الرسالة التي يدعي حملها ويفضي إلى نتائج عكسية. وتكرار استعمال هذه الأساليب الإغوائية التضليلية، وتواطُؤُ عدة فقهاء على الحجر الفكري يؤديان على المدى البعيد إلى تشكيل عقول الناشئة على نمط من التفكير الجامد الذي يصطدم مع العصر؛ فعندما تغيب الفكرة يبرز الصنم كما يقول مالك بن نبي.

فلا سبيل للتواصل مع أتباع هؤلاء الشيوخ عن طريق العقل والمنطق لتقويم فكرهم بينما مفاتيح الفهم يحتكرها أئمة ما انفكوا يتحدثون عن الحجة والدليل وخطاباتهم الحجاجية تعج

بالسخافات؛ ولا أمل في توسيع دائرتهم المعرفية الضيقة وهم لا يعتدُّون إلا بالموروث، مرجِّحين منقولا على منقول، ومتبجحين بمعرفة الأصول وطريق الوصول.

وعلى هذا، فإن الكتاب، وهو يسبر غور الدائرة المعرفيّة التي يتحرّك داخلها المشايخ، يحاول إبراز هدفهم من إضفاء الصبغة الدينية على كل جوانب الحياة وكشف طريقتهم في إسباغ صفة الربانية على أقوالهم وأفعالهم.

الآن وقد ظهرت بؤر إقصائية وتكفيرية عديدة على شكل كتل بشرية تسعى إلى التمكين في الأرض، ما أحوجنا إلى نفض الغبار عن عقولنا وكنس أبوابنا لا أبواب غيرنا. ولا مناص لنا من تفكيك الرؤى الفقهية المتهافتة إذا أردنا القضاء على القناعات البالية التي لا ترفع الدين فوق المذاهب وتبقي على الجمود بحصر مستقبل الفقه في ماضيه. أملي أن تتظافر جهود كل العاملين في حقل المعرفة لمحاصرة الظلامية وتعبيد الطريق نحو التقدم والانعتاق.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أطلب من القراء الأعزاء إبداء ملاحظاتهم وانتقاداتهم لمحتوى الكتاب وعرض مناقشات تطغى على تدخلات السلبيين والعدميين الذين غالبا ما تأتي تعليقاتهم

على كتاباتي على هذا النحو:

- ليتك كتبتَ عن تعصب أحبار اليهود!
- ألا ترى أن فقهاء الشيعة أحقُّ بالنقد؟!
- لماذا تكشف عن الجوانب السلبية للفقهاء وتتغاضى عن الجوانب الإيجابية؟
- ما الجدوى من عرض التراث العفن على الناس؟
- إن الطعن في أولئك الفقهاء استهداف للإسلام.

المراجع

- القرآن الكريم.
- الإحكام في المراقي الموصلة إلى بناء الأحكام، أبو الطيب مولود السريري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013.
- الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام، محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار طيبة، الرياض، 1998.
- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، شمس الدين محمد بن محمد الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت،2004.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى أبو عيسى بن سورة، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض، دار السلام، 1419هـ.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، 2005، بيروت.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم

النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

- براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة، بكر بن عبد الله أبو زيد، الرياض، 1987.
- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
- حقيقة كرة القدم، ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي، الطبعة الأولى، 1429ه
- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، دار السلام، الرياض،2001.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، دار السلام، الرياض، 2000.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2017.
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1995.

الفهرس

إهداء 3

مقدمة...5

الفصل الأول: شغبٌ فِقهي 9

الفصل الثاني: فقهاء آخر الزمان 17

الفصل الثالث: للفقه شيوخٌ وشيخوخةٌ أيضا 21

الفصل الرابع: "اِتّقِ اللهَ!" في حِواراتنا 27

الفصل الخامس: إنهم أكثرُ تديُّنا مِنّا! 31

الفصل السادس: إخطاء الوسيلة في الرد على ازدراء الإسلام.......39

الفصل السابع: التلون في الدين، مثال: حُكم الإسلام في التطبيع مع إسرائيل!...47

الفصل الثامن: إلى متى التواطؤ على إخفاء الجزء العفن من التراث الفقهي؟.. 55

الفصل التاسع: بين زلَّة الفقيه وفِتنته 61

الفصل العاشر: فقه التحريم 71

الفصل الحادي عشر: التحريم جاهزٌ ، عَلامَ الدوْرُ الآن؟....................79

الفصل الثاني عشر: عندما يتطاول الفقيه على عِلم الله 85

الفصل الثالث عشر: كيف يسْتصغِر الفقيهُ عقولَ الناس؟ 97

الفصل الرابع عشر: تَوجُّس الفقهاء من المستجدات العلمية..... 109

الفصل الخامس عشر: الرؤية الدينية الضيقة، المثال الأول: فقيه تائه في زمن كورونا... 121

الفصل السادس عشر: الرؤية الدينية الضيقة، المثال الثاني: الزلزال ليس ظاهرة طبيعية! 127

الفصل السابع عشر: تحتَ النقاب الأسوَد 133

الفصل الثامن عشر: تنمُّر النقاب على التنُّورة 139

الفصل التاسع عشر: التهافت والمراهقة الفقهية، مثال: موقف المحافِظِين إزاء تعديل مدونة الأسرة 149

الفصل العشرون: الكرة في ملعب الفقهاء............................... 163

خاتمة 169

المراجع 173

الفهرس.. 175